سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وقد علم ما في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ وفي قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال من قبل: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] وقال في البقرة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وذلك لأن من يرى كتابًا عند غيره، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب؟ فإذا قيل: هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك: تصنيف من هو؟ ولا يقال أولا: هذا الكتاب تصنيف من؟ ثم يقول: في ماذا هو؟ إذا علم هذا فقال أولا: هذا الكتاب هدى ورحمة، ثم قال هاهنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطاعته.

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

يعني أتعترفون به أم تقولون هو مفترى، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كيف قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ مع أن النذر سبقوه؟ الجواب: من وجهين، أحدهما: معقول والآخر منقول، أما المنقول فهو أن قريشًا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ وهو بعيد، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قومًا من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصًا بالعرب بل أهل

الكتاب أيضًا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارًا ولأن النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولاً، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض بإهلاكهم، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ أي بعد الضلال الذي كان بعد الهداية لم يأتهم نذير.

المسألة الثانية: لو قال قائل: التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يوجب أن يكون إنذاره مختصًا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلاً إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولاً إليهم، نقول: هذا فاسد من وجوه أحدها: أن التخصيص لا يوجب نفي ما عداه، والثاني: أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يأمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك، الثالث: هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء، وبهذا يتبين حسن ما اخترناه، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني تنذرهم راجيًا أنت اهتداءهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الله مبتدأ وخبره الذي خلق، يعني الله هو الذي خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد، وقد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى ستة أحوال في نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرًا إلى خلقه ذات السموات حالة ونظرًا إلى خلقه صفاتها أخرى ونظرًا إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظرًا إلى ذوات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهي ستة أشياء

على ستة أحوال وإنما ذكر الأيام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره:

إِنَّ يَوْمًا وُلِدْتَ فِيهِ كَانَ يَوْمًا مُبَارَكًا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلاً ولا يخرج عن مراده، لأن المراد هو الزمان الذي هو ظرف ولادته.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ اعلم أن مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين: أحدهما: ترك التعرض إلى بيان المراد، وثانيهما: التعرض إليه والأول أسلم والى الحكمة أقرب، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال: أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئًا لم يجب عليه أن يعلمه، وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب، ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هي، وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجبًا، وأما من يتعرض إليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم، والثاني يكاد أن يقع في أن يكون جاهلاً مركبًا وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد في أن السكوت خير من الكذب، وأما أنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتابًا صنفه إنسان وكتب له شرحًا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتي على جميع ما أتى عليه المصنف، ولهذا كثيرًا ما نرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول: لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا، وإذا كان حال الكتب الحادثة التي تكتب عن علم قاصر كذلك، فما ظنك بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز أن يدعي جاهل أني علمت كل سر في هذا الكتاب، وكيف ولو ادعى عالم أني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح منه ذلك، فكيف من يدعي أنه علم كل ما في كتاب الله؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز ولعل القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره، إذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم، وهذا أقرب إلى ذلك الذي لا يعلم، للتشابه البالغ الذي فيه، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعًا أنه ليس بمراد، وهذا لأن قائلاً إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة، وإنما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصًا في ذاته لاستحالة ذلك، والجلوس

والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك والتوقف فيما يجوز بعده، والمذهب الثاني: خطر ومن يذهب إليه فريقان: أحدهما: من يقول: المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني، وثانيهما: من يقول: المراد الاستيلاء، والأول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلاً والأول مع كونه جهلاً هو بدعة وكاد يكون كفرًا، والثاني وإن كان جهلاً فليس بجهل يورث بدعة، وهذا كما أن واحدًا إذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحدًا منهم يكون جهلاً وبدعة وكفرًا، وإذا اعتقد أنه يرحم زيدًا الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق، ومما قيل فيه: إن المراد منه استوى على ملكه، والعرش يعبر به عن الملك، يقال: الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]إشارة إلى البخل، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبًا جل كلام الله عنه، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلادًا يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير، ومن يكون سلطانًا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه، وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره، فالعرش والكرسي في العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة، فلما كان ملك السموات والأرض في غاية العظمة، عبر بما ينبئ في العرف عن العظمة، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ [الإنسان: ٢]و﴿إِنَّا زَيَّنَّا﴾ [الصافات: ٦]﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]و﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ [الحجر: ٩]أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملاً، غير أن العظيم في العرف لا يكون واحدًا وإنما يكون معه غيره، فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريدًا للعظمة، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له: ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان، ولا سيما من يقول بأن إلهه في مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان؟ فكما يقال للمقهور الهارب: لم يبق له مكان، مع أن المكان واجب له، يقال للقادر القاهر: هو متمكن وله عرش، وإن كان التنزه عن المكان واجبًا له، وعلى هذا كلمة (ثم) معناها خلق السموات والأرض، ثم القصة أنه استوى على الملك، وهذا كما يقول القائل: فلان أكرمني وأنعم علي مرارًا، ويحكي عنه أشياء، ثم يقول: إنه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني بهذا، فنقول: (ثم) للحكاية لا للمحكي، الوجه الآخر: قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش، واستوى جاء بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً. أما النقل فكثير مذكور في (كتاب اللغة) منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه. وأما الاستعمال فقول القائل:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وعلى هذا فكلمة (ثم)، معناها ما ذكرنا كأنه قال: خلق السماوات والأرض، ثم ههنا ما هو

أعظم منه استوى على العرش، فإنه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السماوات والأرض، والوجه الثالث: قيل: إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه في مكان، وذلك لأن الإنسان يقول: استقر رأي فلان على الخروج، ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأي في مكان وهو الخروج، لما أن الرأي لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل في مكان إذا علم هذا فنقول: فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن، حتى إذا قال قائل: استقر زيد على الفلك أو على التخت، يفهم منه التمكن وكونه في مكان، وإذا قال قائل: استقر الملك على فلان، لا يفهم أن الملك في فلان، فقول القائل: الله استقر على العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز، فإذن فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال، ثم الذي يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانًا له وجوه من القرآن أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [الحج: ٦٤] وهذا يقتضي أن يكون غنيًا على الإطلاق، وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقيًا، فالمتحيز ينتفي عند انتفاء الحيز، وكل ما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غني بالنص، الثاني: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى، فإذن لا يكون في ذلك الوقت في مكان، فجاز عليه أن لا يكون في مكان، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان، الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] ووجه التمسك به هو أن (على) إذا استعمل في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا: فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا: زيد مع عمرو، إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان ونحن متمكنون، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك، فإن: قيل كلمة (مع) تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني، أي بالإعانة والنصر، فنقول: كلمة (على) تستعمل لكون حكمه على الغير، يقول القائل: لولا فلان على فلان لأشرف في الهلاك ولأشرف على الهلاك، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل حاصلها، بمعنى الإشراف والنظر، فكيف لا نقول في استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معناه بعلمه، الرابع: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولو كان في مكان لأحاط به المكان وحينئذٍ فإما أن يرى وإما أن لا يرى، لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق لأن القول بأنه في مكان ولا يرى باطل بالإجماع، وإن كان يرى فيرى في مكان أحاط به فتدركه الأبصار. وأما إذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا

يلزم أن تدركه الأبصار. أما إذا لم ير فظاهر. وأما إذا رؤي فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه. وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءًا من عدم جواز كونه في مكان، كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان، وذلك لأن كلمة (ثم) للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله إما أن يكون في مكان أو لا يكون، فإن كان يلزم محالان أحدهما: كون المكان أزليًا، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفي فيصير فلسفيًا يقول بقدم سماء من السماوات، والثاني: جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي إلى حدوث الباري أو يبطل دلائل حدوث الأجسام، وإن لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزليًا، فإما أن يكون في الأزل ساكنًا أو متحركًا لأنهما فرعا الحصول في مكان، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه، ثم إن هذا القائل يقول: إنك تشبه الله بالمعدوم فإنه ليس في مكان ولا يعلم أنه جعله معدومًا حيث أحوجه إلى مكان، وكل محتاج نظرًا إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام.

ثم قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى: لا إله غير الله، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا بإذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] والعظمة تتبين بهما فإن من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة، ثم إذا كان أمره نافذًا فيهم يزداد في أعين الخلق، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾

معناه، والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن العمل أثر الأمر. وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فيه وجوه أحدها: أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة، فهو مقدار ألف سنة، ثانيها: هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يعني ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في زمان يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله ﴿مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفًا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وتبين فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى: (وَفِي هَٰذِهِ لَطِيفَةٌ) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق، وأشار إلى عظمة الملك، وذكر في هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ والروح من عالم الأمر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]وأشار إلى دوامه بلفظ يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول، وإنما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره. واعلم أن ظاهر قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في يوم يقتضي أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثًا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف، وكلمة (كن) فكيف فهم من كلمة على كونه في مكان، ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل، فإن الملك إذا كان آمرًا ناهيًا يطاع في أمره ونهيه، ولكن يكون غافلاً لا يكون مهيبًا عظيمًا كما يكون مع ذلك خبيرًا يقظًا لا تخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [السجدة: ٤]وعالم الأرواح بقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يعلم ما في الأرواح ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم ما في الأجسام أو نقول: قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إشارة إلى ما لم يكن بعد ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم، ثم قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة، رحيم واسع الرحمة على البررة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل

الدال عليها من الأنفس بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ يعني أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الأرض للنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه في كل موضع وحركة النار إلى فوق، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق.

وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ قيل المراد آدم عليه السلام فإنه خلق من طين، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء، والأغذية إما حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي من ماء مهين، فإن قال قائل: التفسير الثاني غير صحيح لأن قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ . . . ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين، فنقول: لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ عائد إلى آدم أيضًا لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ﴾ [غافر: ٥٧] ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي كان طينًا فجعله منيًّا ثم جعله بشرًا سويًّا، وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ مخاطبًا ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحي فلما قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ خاطبه من بعده وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، فإن قيل:

الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] فنقول: هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق، وهاهنا ذكر الأمور المرتبة وهي كون الإنسان طينًا ثم ماءً مهينًا ثم خلقًا مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب في بعض المراتب دون البعض.

المسألة الثانية: الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أمورًا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئًا ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتابًا، فكذلك الإنسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية.

المسألة الثالثة: ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فإن الإنسان لا يضبط في زمان واحد كلامين، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فإن الصوت من أي جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار، ألا ترى أنك تقول: سمع زيد ورأى عمرو، ولا تقول: سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو، إلا نادرًا، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له، والعين كالأصل وقوة الإبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما.

المسألة الرابعة: لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال: أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب، وعند السلب قال: ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الأبصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

لما قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى، في كلامه القديم، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٢، ٣] الوحدانية بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [السجدة: ٤، ٩] ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على ما سبق منهم فإنهم قالوا: محمد ليس برسول والله ليس بواحد، وقالوا: الحشر ليس بممكن.

المسألة الثانية: أنه تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٣٨] بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم إياه في الحشر ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ بلفظ الماضي، وذلك لأن تكذيبهم إياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني هم فيه، وأما إنكارهم للحشر كان سابقًا صادرًا منهم ومن آبائهم فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾.

المسألة الثالثة: أنه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ [يونس: ٣٨] وفي الحشر حيث قال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا﴾ ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية، وذلك لأنهم كانوا مصرين في جميع الأحوال على إنكار الحشر والرسول، وأما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى، ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فلم يقل: قالوا: إن الله ليس بواحد، وإن كانوا قالوه في الظاهر.

المسألة الرابعة: لو قال قائل: لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل، نقول في الجواب: ذكر دليله أيضًا وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وكذلك خلق السموات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي أئنا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ إضراب عن الأول يعني ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانيًا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة

حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب، أو نقول: معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم، فإنهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني لا بد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ إشارة إلى أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا، وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ ينبئ عن بقاء الأرواح فإن التوفي الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ، ثم إن الروح الزكي الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته، والحكماء يقولون: إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوي خير من بدنها وتكمل به، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثاني فإن أرادوا ما ذكر بها فقد وافقونا وإلا فيغير النظر في ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقًّا وقد يكون غير حق، فإن قيل: هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان أحدهما: أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فإنهم قالوا: ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال: الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه، وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضًا، فقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبًا، وقوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ يحتمل أن يكون خطابًا مع الرسول ﷺ تشفيًا لصدره فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب، ويحتمل أن يكون عامًّا مع كل أحد كما يقول القائل إن فلانًا كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصًّا، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب، ثم وقف بين يديه يكون في غاية الخجالة.

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ يعني يقولون أو قائلين ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم، وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحًا، وقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ معناه إنا في الحال آمنا ولكن النافع الإيمان والعمل الصالح، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل، وهذا باطل منهم فإن الإيمان لا يقبل في

الآخرة كالعمل الصالح، أو نقول: المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقالوا إن هذا الذي جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح وأما الإيمان فإنا موقنون وما أشركنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

جوابا عن قولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] وبيانه هو أنه تعالى قال: إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا﴾ صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول: إن الله ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر، ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥] هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلاً خاليًا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء: حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال، فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيرًا محضًا أو شرًّا محضًا أو خيرًا مشوبًا بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان، إذا علم هذا فخلق الله عالمًا فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالمًا فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالمًا فيه شر محض، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب، فإنك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار، تجد المنافع أكثر، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلاً من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلاً غاية ما في الباب أن الكفر يحبط خيره ولا ينفعه، إنما يستحيل نظرًا إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره، وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقًا على الفطرة المقتضية للخيرات، إذا ثبت هذا فنقول: قالوا: لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار، فلو امتنع وقال: في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له: لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك

الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فإذا نظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقال الله تعالى في جوابهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير، ثم بين لهم خيره بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة. وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب، فقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] إشارة إلى الشر، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة: ٣١] فإن قال قائل: فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر، فيقال له: ما قاله الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر، لكن حينئذٍ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير في القضاء والشر في القدر، فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لأنه تعالى قال لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥] وهذا إشارة إلى أن النار لمن في العالم السفلي، والذين في العالم العلوي مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة، وهذا يقتضي أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح. وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون تأكيدًا وهو الظاهر، والثاني: أن يكون حالاً، أي مجموعين، فإن قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار؟ نقول: هذا لبيان الجنس، أي جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمنًا للملائكة، ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس، فإن قيل: فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تمتلئ ببعض الخلق، نقول: هو كذلك وإنما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة، والله أعلم. ولما بين الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا﴾ أنهم لا رجوع لهم قال لهم: إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

وفي تفسير الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ﴾ لقاء يحتمل أن يكون منصوبًا بذوقوا، أي

ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أو بما في الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبًا بقوله: ﴿نَسِيتُمْ﴾ أي بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا، وعلى هذا لو قال قائل: النسيان لا يكون إلا في المعلوم أولاً إذا جهل آخرًا، نقول: لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمرًا كان قد علمه.

المسألة الثانية: قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون إشارة إلى اليوم، أي: فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم، وثانيها: أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم، أي فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء، وثالثها: أن يكون إشارة إلى العذاب، أي: فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم، ثم قال: إنا نسيناكم، أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسي قطعًا لرجائكم، ثم ذكر ما يلزم من تركه إياهم كما يترك الناسي وهو خلود العذاب، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له، فقال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل، وإنما ينساه البعض فإذا ذكر بها خرّ ساجدًا له، يعني انقادت أعضاؤه له، وسبح بحمده، يعني ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك، وهم لا يستكبرون، يعني وكان قلبه خاشعًا لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقًا.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

يعني بالليل قليلاً ما يهجعون، وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي يصلون، فإن الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة، والحمل على الأول أولى لأنه قال بعده: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً له ويحتمل أن يكون حالاً، أي خائفين طامعين كقولك: جاءوني زورًا أي زائرين، وكأن في الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا﴾ فإنه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع. وفي الآية الثانية

إشارة إلى المرتبتين الأخيرتين وهي العبادة خوفًا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعًا في بره، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال: إن هذا لا يدخل في عيني، يعني عيني تطلع إلى غيره، فإذا لم يبق تطلع للعين إلى شيء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد، وهذا فيه لطيفة وهي أن من العبد شيئًا وهو العمل الصالح، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام، فلله تعالى أن يقول: جزاء الإحسان إحسان، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن في مقابلته، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض، وله أن يقول: جعلت الأول تفضلاً لا أطلب عليه جزاء، فإذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء: لأني أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيًا بالحسنة ابتداء، وجزاء الإحسان إحسان، فأجعل الثواب جزاء، كلاهما جائز، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثاني مقابلاً وعوضًا لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء، وإنما الله يتفضل، يثق ولكن لا يطمئن قلبه، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب، يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول: فعلي جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء، فإذا أثابه الله تعالى يقول: الذي أتيت به كان جزاء، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمدًا وشكرًا فيأتي بحسنة فيقول الله: إني أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء، فيجازيه ثالثًا فيشكر العبد ثالثًا فيجازيه رابعًا وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب، ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدي إليه يتذكرها فأهدى إلى المهدي عوضًا فرآه المهدي الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه إليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر: ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحاب، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فإذا بعث إليه المهدي إليه عوضًا يقول المهدي: هذا عوض ما أهديت إليه، فيسكت ويترك الإهداء فينقطع، واعلم أن التكاليف يوم القيامة، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل: هل يستوي الفريقان، ثم بين أنهما لا يستويان، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحًا قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطي الملك النازل، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبًا أو يكتب له خبزًا، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يحقق ما ذكرنا، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ إشارة إلى حال الكافر، وقد ذكرنا مرارًا أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال، فلم يقل: وأما الذين فسقوا وعملوا السيئات لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه، وقوله في حق المؤمنين: ﴿لَهُمْ﴾ بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره: اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولاً على العارية وله استرداده، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥] ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرجه منها قال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ولم يقل: لكما الجنة، وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال: (لكم الجنة) و﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا﴾ إشارة إلى معنى حكمي، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء: إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية، وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد، فإذا صبر زمانًا طويلاً تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه، إذا علمت هذا فقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ إشارة إلى أن الألم لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد، وقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار، فلما ذاقوه كان أشد إيلامًا لأن من لا يتوقع شيئًا فيصيبه يكون أشد تأثيرًا، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئًا آخر

من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول، وكانوا يكذبون به بقولهم: لا عذاب فوق ما نحن فيه، فإذن معنى قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ليس مقتصرًا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وقيل لهم: ذوقوا عذابًا كذبتم به من قبل، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدًا، ولا يكون مديدًا فإن العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد.

وفي الآية مسألتان:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر؟ فنقول: حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما: أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضًا أمران أحدهما: أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا: ﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ ليحترز العاقل عنه ولو قال: (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً وقال في عذاب الآخرة (الأكبر) لذلك المعنى، ولو قال: دون العذاب الأبعد الأقصى، لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل هذه الترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[السجدة: ١٤] يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلا، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج، وثانيهما: معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل: لعلهم يرجعون، بسببه، ونزيد وجهًا آخر من عندنا، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب

من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر، كما يقال: فلان اتجر ليربح، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظرًا إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فإنه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا، كما يقال: يتجر رجاء أن يربح، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرًا إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلاً نظرًا إلى الفعل، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل: فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظرًا إليه وإن أمكن أن لا يموت نظرًا إلى قدرة الله تعالى، ويصحح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ [الشعراء: ٨٢] مع أنه كان عالمًا بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلاً من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول: في كل صورة قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فإن نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم، فإن من التعذيب لا يلزم الرجوع لزومًا بينًا فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلاً بما يكون، غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلومًا فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى، ولا يلزم منه عدم العلم، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادًا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيًا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد، لأن من يكفر بالله ظالم فإن الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شيء كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] أي دليلك الله لا يحتاج المستنير الباطن إلى دليل على الله، ولهذا قال بعض العارفين: رأيت الله قبل كل شيء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء، كان فيها نفع أو ضر كاف في معرفة الله كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فالأول الذي لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثاني

الذي يحتاج إلى دليل فهو متوسط، والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم، والرابع الذي لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر، وهو الذي إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته، فإن الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٩] بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبي ﷺ ووجود من كان على دينه إلزامًا لهم، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه، وقوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قيل معناه: فلا تكن في شك من لقاء موسى فإنك تراه وتلقاه، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج، وقيل: معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فإنك تلقاه كما لقي موسى الكتاب، ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي عليه السلام فإنه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم، فقيل له: تذكر حال موسى ولا تحزن فإنه لقي ما لقيت وأوذي كما أوذيت، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة، وهي أن أحدًا من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فإن لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بني إسرائيل أيضًا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قوله: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾[المائدة: ٢٤] ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى، فقال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ» ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر، فقال: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا يصلح جوابًا لسؤال: وهو أنه لما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم

اختلفوا وصاروا فرقًا وسبيل الحق واحد، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة، وفيه وجه آخر، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد، فإن المبتدع معذب كالكافر، غاية ما في الباب، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ قد ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾[هود: ١١٠] تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[السجدة: ٣] ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ زيادة إبانة، أي مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ اعتبر فيه السمع، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم، فقال: أفلا يسمعون، يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله، والجرز الأرض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات. ثم قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ قدم الأنعام على الأنفس في الأكل لوجوه أحدها: أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان، والثاني: وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه. وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان، فكأن الحيوان يأكل الزرع، ثم الإنسان يأكل من الحيوان، الثالث: إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة. ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين، فإنها كانت مسموعة، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إلى آخر السورة، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة في أولها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾[السجدة: ٣] وفي آخرها بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾[السجدة: ٢٣] وذكر التوحيد بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[السجدة: ٤] وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧] وفي آخر

السورة ذكره بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ﴾ وذكر الحشر في أولها بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] وفي آخرها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يقبل إيمانهم في تلك الحالة، لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا، ولا ينظرون، أي لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم. قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال. وقوله: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ يحتمل وجوهًا أحدها: وانتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك، وعلى هذا فرق بين الانتظارين، لأن انتظار النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان، وثانيها: وانتظر النصر من الله فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين، وثالثها: وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء، كما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] إلى غير ذلك، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب. والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين.

تفسير سورة السجدة

وهي مكِّيةٌ، غيرَ ثلاثِ آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله الكلبيُّ ومقاتل[1]. وقال غيرهما: إلَّا خمسَ آيات، من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2]. وهي ثلاثون آيةً. وقيل: تسعٌ وعشرون.

وفي الصحيح عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يومَ الجمعة: ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الحديث[3].

وخرَّج الدراميُّ أبو محمد في «مسنده» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[4].

قال الدَّراميُّ: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثتنا[5] عَبْدةُ، عن خالد بن مَعْدَان قال: اقرؤوا المُنْجِيةَ، وهي ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ﴾، فإنه بلغني أنَّ رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرَها، وكان كثيرَ الخطايا، فَنَشرَتْ جناحها عليه وقالت: ربِّ اغْفِرْ له، فإنه كان يُكْثِرُ[6] قراءتي. فشفَّعها الربُّ فيه وقال: «اكتُبوا له بكلِّ خطيئةٍ حسنةً،

---

(١) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٢، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٠ عن ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٢.

(٣) صحيح مسلم (٨٧٩)، وهو عند أحمد (١٩٩٣). وأخرجه أيضاً أحمد (١٠١٠٢)، والبخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الدرامي (٣٤١١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) - (٧٠٩).

(٥) في النسخ: حدثنا، وهو خطأ.

(٦) بعدها في (د) و (م): من

وارفَعوا له درجة»[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ②﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإجماع على رَفْع: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولو كان منصوباً على المصدر لجاز، كما قرأ الكوفيون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٣-٥][٢].

و «تَنْزِيلُ» رَفْعٌ بالابتداء، والخبرُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو خبرٌ على إضمارِ مبتدأ، أي: هذا تنزيلُ، أو: المَتْلوُّ تنزيلُ، أو: هذه الحروفُ تنزيلُ. ودلَّت «الم» على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون «لَا رَيْبَ فِيهِ» في موضع الحال من «الكتاب»، و ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الخبر، قال مكّيّ[٣]: وهو أَحْسَنُها.

ومعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لا شكَّ فيه أنَّه من عندِ الله، فليس بسحرٍ ولا شعرٍ ولا كَهانةٍ ولا أساطيرِ الأوّلين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعةُ التي تقدَّر بِبَلْ وألفِ

---

(١) سنن الدرامي (٣٤٠٨)، وهو ضعيف لإرساله. خالد بن معدان: ثقة عابد يرسل كثيراً، وأبو المغيرة: هو عبد القدُّوس بن الحجاج، ثقة. كذا في «تقريب التهذيب». وعبدة: هي بنت خالد بن معدان ذكرها ابن حبان في الثقات ٧/ ٣٠٧.

(٢) وهي قراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة بضم اللام. السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧، وما قبله منه.

الاستفهام، أي: بل أيقولون[١]. وهي تدلُّ على خروجٍ من حديثٍ إلى حديث، فإنه عزَّ وجلَّ أَثْبَتَ أنه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وأنَّ ذلك ممَّا لا ريبَ فيه، ثم أَضْرَبَ عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: افْتَعلَه واخْتَلقَه.

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كذَّبهم في دَعْوَى الافتراء. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قتادةُ: يعني قريشاً، كانوا أمّةً أميَّةً لم يأتهم نذيرٌ من قَبلِ محمدٍ ﷺ[٢]. و «لِتُنْذِرَ» متعلِّقٌ بما قَبْلَها فلا يُوقَفُ على «مِن ربِّكَ». ويجوز أن يتعلَّق بمحذوف، التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقفُ على «مِن ربِّكَ»[٣]. و «ما» في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ نَفْيٌ. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلة، و «نَذِيرٍ» في محلِّ الرفع، وهو المُعْلِمُ المُخَوِّف.

وقيل: المرادُ بالقوم أهلُ الفَترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل[٤]. وقيل: كانت الحجَّةُ ثابتةً لله جلَّ وعزَّ عليهم بإنذارِ مَن تقدَّم من الرسل وإنْ لم يَرَوْا رسولاً، وقد تقدَّم هذا المعنى[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرَّفهم كمالَ قدرته ليسمعوا القرآن ويتأمَّلوه. ومعنى «خَلَقَ»: أَبْدَعَ وأَوْجَدَ بعد العدَمَ وبعد أن لم تكن شيئاً.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من يوم الأحد إلى آخِرِ يومِ الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إنَّ اليوم من الأيام الستة التي خَلَقَ الله فيها السماواتِ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٣ ، والإملاء للعكبري ٤/ ١٨٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٤) ذكره عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٤٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٥) ينظر ١٣/ ٤٤ ، وسلف الكلام على أهل الفترة ٧/ ٣٩٠ .

والأرضَ مقدارُهُ ألفُ سنةٍ من سِنِي الدنيا. وقال الضحَّاك: في ستةِ آلافِ سنة، أي: في مدَّةِ ستةِ أيامٍ من أيام الآخرة[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في «الأعراف» و «البقرة»[٢] وغيرِهما، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفىً في «الكتاب الأَسْنَى في شَرْحِ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[٣]. وليست «ثُمَّ» للترتيب، وإنَّما هي بمعنى الواو.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما للكافرين من وليٍّ يَمنعُ من عذابهم «ولا شفيعٍ». ويجوز الرفعُ على الموضع[٤]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قدرته ومخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يُنزل القضاءَ والقَدَر[٥]. وقيل: يُنزل الوحيَ مع جبريل[٦]. وروى عمرو بن مرَّةَ عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبِّر أمرَ الدنيا أربعةٌ: جبريلُ، وميكائيلُ، ومَلَكُ الموتُ، وإسرافيلُ، صلواتُ الله عليهم أجمعين. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأمَّا ميكائيلُ فموكَّلٌ بالقَطْرِ والماء، وأمَّا مَلَكُ الموت فموكَّلٌ بقبض الأرواح، وأمَّا إسرافيلُ فهو يَنْزِلُ بالأمر عليهم[٧].

---

(١) أخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/ ٥٩٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٥٨ : وهذا قول ضعيف مُكرَهَةٌ ألفاظُ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأحاديثُ التي بيَّنت أيامَ خَلْقِ الله تعالى المخلوقات.

(٢) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها، و ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٣) ص١٨٧ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٠ ، والبغوي ٣/ ٤٩٧ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٥٣ ، وأخرجه أبو الليث في التفسير ٣/ ٢٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٧٨) و(٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٥٨).

وقد قيل: إنَّ العرش موضعُ التدبير، كما أنَّ ما دون العرش موضعُ التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الرعد: ٢]، وما دون السماوات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريلُ يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحي. النقَّاش: هو الملَك الذي يدبِّر الأمرَ من السماء إلى الأرض. وقيل: إنَّها أخبارُ أهلِ الأرض تَصْعَدُ إليه مع حَمَلتِها من الملائكة؛ قاله ابن شجرة(١). ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يرجع ذلك الأمرُ والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يومُ القيامة.

وعلى الأقوال المتقدِّمة؛ فالكنايةُ في «يَعْرُجُ» كنايةٌ عن المَلَك، ولم يَجْرِ له ذِكْرٌ لأنه مفهومٌ من المعنى، وقد جاء صريحاً في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ قولُه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السماء على لغةِ مَن يذكِّرها، أو على مكان المَلَكِ الذي يَرْجِعُ إليه. أو على اسم الله تعالى؛ والمرادُ: إلى الموضع الذي أَقرَّه فيه، وإذا رَجَعَتْ إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي: إلى سِدْرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصْعَدُ به من الأرض، ومنها ينزل ما يُهْبَطُ به إليها، ثَبت معنى ذلك في «صحيح» مسلم(٢).

والهاءُ في «مِقْدَارُهُ» راجعةٌ إلى التدبير، والمعنى: كان مقدارُ ذلك التدبيرِ ألفَ

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) برقم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥)، وهو من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: لمَّا أُسري برسول الله ﷺ، انتُهِيَ به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَطُ به من فوقها فيُقبض منها...

سنةٍ من سِني الدنيا، أي: يقضي أمرَ كلِّ شيءٍ لألفِ سنةٍ في يومٍ واحد، ثم يُلْقِيه إلى ملائكته، فإذا مَضَتْ قَضَى لألفِ سنةٍ أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد[١].

وقيل: الهاءُ للعُروج. وقيل: المعنى: أنه يدبِّر أمرَ الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يَعْرجُ إليه ذلك الأمرُ، فيَحْكُم فيه في يومٍ كان مقداره ألفَ سنة[٢].

وقيل: المعنى: يدبِّر أمرَ الشمس في طلوعِها وغروبِها ورجوعِها إلى موضعها من الطُّلوع، في يومٍ كان مقدارهُ في المسافة ألفَ سنة.

وقال ابن عباس: المعنى: كان مقدارُه لو سارَه غيرُ المَلَكِ ألفَ سنة؛ لأنَّ النزولَ خمسُ مئة، والصعود خمس مئة. ورُوي ذلك عن جماعةٍ من المفسِّرين، وهو اختيارُ الطَّبريِّ[٣]؛ ذكره المهدويُّ. وهو معنى القول الأول، أي: إنَّ جبريل لسرعةِ سَيْرِه يقطعُ مسيرةَ ألفِ سنةٍ في يومٍ من أيامكم؛ ذكره الزمخشريُّ[٤].

وذكر الماورديُّ[٥] عن ابن عباس والضحَّاكِ: أنَّ المَلَك يصعد في يومٍ مسيرةَ ألفِ سنة. وعن قتادةَ: أنَّ المَلَك ينزل ويصعد في يومٍ مقدارُه ألفَ سنة. فيكونُ مقدارُ نزوله خمسَ مئة سنة، ومقدارُ صعودِه خمس مئةٍ على قول قتادةَ والسدِّي. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزولُ ألفُ سنة، والصعودُ ألفُ سنة.

﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: مما تَحْسُبون من أيام الدنيا. وهذا اليومُ عبارةٌ عن زمان يتقدَّر بألف سنة من سِني العالَم، وليس بيومٍ يستوعبُ نهاراً بين ليلتين؛ لأنَّ ذلك ليس عند الله. والعربُ قد تعبِّر عن مدَّةِ العصر باليوم، كما قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٩٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤١ .

(٣) في تفسيره ١٨/ ٥٩٦ ، وقد أخرج قول ابن عباس بنحوه ١٨/ ٥٩٣ ، وأخرجه أيضاً عن مجاهد وقتادة.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٤٠ ، ويعني بالقول الأول قولَ يحيى بن سلام.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤ .

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأويبِ[١]

وليس يريد يومين مخصوصين، وإنَّما أراد أنَّ زمانهم ينقسم شَطْرين، فعبَّر عن كلِّ واحدٍ من الشطرين بيوم[٢].

وقرأ ابن أبي عبلة: «يُعْرَجُ» على البناء للمفعول. وقرئ: «يَعُدُّونَ» بالياء[٣].

فأمَّا قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمُشْكِلٌ مع هذه الآية. وقد سأل عبد الله بن فيروز الدَّيلميُّ عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: أيامٌ سمَّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكْره أن أقول فيها مالا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسيِّب فقال: لا أدري. فأخبرتُه بقول ابن عباس فقال ابن المسيِّب للسائل: هذا ابنُ عباس اتَّقى أن يقول فيها وهو أعلمُ منِّي[٤].

ثم تكلَّم العلماءُ في ذلك فقيل: إنَّ آية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية، والمعنى: أنَّ الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألفَ سنة؛ قاله ابن عباس[٥]. والعربُ تَصِفُ أيامَ المكروه بالطول وأيامَ السرورِ بالقِصَر؛ قال:

ويومٍ كظلِّ الرُّمح قصَّر طولَه دَمُ الزِّقِّ عنَّا واصْطِفاقُ المزاهِرِ[٦]

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤، والخزانة ٤/ ٢٧. والكلام في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. وتأويب: صفةُ سيرٍ، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤١، ونسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨ قراءة: (يعدُّون) للأعمش والحسن بخلاف عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٨. وقوله: فأخبرته بقول ابن عباس، القائل هو ابن أبي مليكة، وهو الذي روى الخبر. وأخرجه بنحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧-٢٢٨، والطبري ٢٣/ ٢٥٤، والحاكم ٤/ ٦١٠.

(٥) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩.

(٦) قائله يزيد بن الطثريه، كما في الحيوان ٦/ ١٧٩، والصحاح (صفق)، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٩، =

وقيل: إنَّ يومَ القيامة فيه أيام، فمنه ما مقدارُه ألفُ سنة، ومنه ما مقدارُه خمسون ألفَ سنة[١].

وقيل: أوقاتُ القيامة مختلفةٌ، فيعذَّب الكافر بجنسٍ من العذاب ألفَ سنة، ثم ينتقل إلى جنسٍ آخرَ مدَّتُه خمسون ألفَ سنة.

وقيل: مواقفُ القيامة خمسون موقفاً، كلُّ موقفٍ ألفُ سنةٍ. فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: مقدارُ وقتٍ أو موقفٍ من يوم القيامة.

وقال النحَّاس[٢]: اليومُ في اللغة بمعنى الوقتِ، فالمعنى: تعرج الملائكةُ والروحُ إليه في وقتٍ كان مقدارُهُ ألفَ سنة، وفي وقتٍ آخَرَ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة.

وعن وهب بن منبِّهٍ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ما بين أسفلِ الأرض إلى العرش[٣].

وذكر الثعلبيُّ عن مجاهدٍ وقتادةَ والضحَّاك في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد: من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريلُ والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يومٍ واحدٍ من أيام الدنيا[٤].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقولِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أراد أرضَ الشام.

= وثمار القلوب للثعالبي ص٦٢٦، ومجمع الأمثال ١/ ٤٣٧ وأساس البلاغة (رمح). وذكره صاحب اللسان (صفق) وقال: قال ابن بري: نسب الجوهري هذا البيت ليزيد بن الطثرية، وصوابه لشبرقة بن الطفيل .اهـ. ويعني بدم الزق: الخمر، ووقع في ثمار القلوب: دم الدَّنّ.

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩.

(٤) ذكره عن مجاهد وقتادة البغوي ٣/ ٤٩٧-٤٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المدينة.

وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «أتاني مَلكٌ من ربِّي عزَّ وجلَّ برسالةٍ، ثم رَفَعَ رِجلَه، فوضعها فوقَ السماءِ، والأخرى على الأرض لم يَرفَعْها بعد»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: عَلِم ما غاب عن الخَلقِ وما حَضَرهم. و«ذَٰلِكَ» بمعنى أنا. حسبما تقدَّم بيانُه في أوّل «البقرة»[٢]. وفي الكلام معنى التهديدِ والوعيد، أي: أَخْلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم، فإني أُجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابنُ عامر: «خَلْقَهُ» بإسكان اللام. وفَتَحها الباقون[٣]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسُهولتها. وهو فعلٌ ماضٍ في موضعِ خفضٍ نعتٍ لـ «شيء». والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أَحْكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، أي: جاء به على ما أراد، لم يتغيَّر على إرادته. وقولٌ آخَر: أنَّ كلَّ شيءٍ خَلَقَه حَسَن؛ لأنه لا يَقْدِرُ أحدٌ أن يأتيَ بمثله، وهو دالٌّ على خالقه[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٨٥)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٩٢ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠ : فيه صدقة بن عبد الله التنيسي، والأكثر على تضعيفه، ووثقه يحيى بن معين ودُحيم. اهـ. وقال ابن عدي: أحاديث صدقة منها ما توبع عليه، وأكثره مما لا يتابع عليه، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق .اهـ. وقد حسَّنه المناوي في فيض القدير ١/ ١٠٥ .

(٢) ١/ ٢٤٢ .

(٣) السبعة ص٥١٦ ، والتيسير ص١٧٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢ .

وَمن أَسْكَنَ اللَّامَ فهو مصدرٌ عند سيبويه؛ لأنَّ قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ يدلُّ على: خَلَق كلَّ شيءٍ خَلْقاً، فهو مثل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٨٨] و ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤][(١)]. وعند غيره منصوبٌ على البدل من «كلّ» أي: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ. وهو مفعولٌ ثانٍ عند بعضِ النَّحويين، على أن يكون معنى «أَحْسَنَ»: أَفْهَمَ وأَعْلَمَ، فيتعدَّى إلى مفعولين، أي: أَفْهَم كلَّ شيءٍ خَلْقَه[(٢)].

وقيل: هو منصوبٌ على التفسير، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء خَلْقاً.

وقيل: هو منصوبٌ بإسقاطِ حرف الجرّ، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء في خَلْقِه، وروي معناه عن ابن عباس[(٣)].

و﴿أَحْسَنَ﴾ أي: أَتْقَنَ وأَحْكَم، فهو حَسَنٌ[(٤)] من جهةِ ما هو لمقاصده التي أُريدَ لها، ومِن هذا المعنى [ما] قال ابن عباس وعكرمةُ: ليست اسْتُ القرد بحسنةٍ، ولكنَّها متقَنةٌ محكَمةٌ[(٥)].

وروى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أتقنه، وهو مثلُ قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه:٥٠] أي: لم يخلق الإنسان على خَلْقِ البهيمة ولا خَلَقَ البهيمةَ [على] خَلْقِ الإنسان[(٦)].

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٨١-٣٨٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧. قال سيبويه: وقال: «كتابَ الله» توكيداً، كما قال: «صُنْعَ الله»، وكذلك: «وَعْدَ الله» [الروم:٥]؛ لأن الكلام الذي قبله وَعْد وصُنْع، فكأنه قال جل وعز: وَعْداً وصُنْعاً وخَلْقاً وكتاباً. اهـ. فالهاء على هذا القول تعود على الله تعالى، و«خَلْقَه» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة. الدر المصون ٩/ ٨٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١.

(٤) في (ظ) و (م): أحسن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٧ - ٥٩٨ من طريق عكرمة عنه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠-٣٠١، وما بين حاصرتين منه. وأخرج قول مجاهد الطبري ١٨/ ٥٩٨.

ويجوز: «خَلْقُهُ» بالرفع، على تقدير: ذلك خَلْقُه[١].

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ؛ خصوصٌ في المعنى، والمعنى: حسَّن خَلْقَ كلِّ شيءٍ حَسَنٍ.

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ والمعنى: أي: جعل كلَّ شيء خَلَقَه حسناً، حتى جَعَلَ الكلبَ في خَلْقِه حسناً؛ قاله ابن عباس[٢]. وقال قتادة في اسْتِ القرد: حسنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقدَّم في «المؤمنون»[٤] وغيرها. وقال الزَّجَّاج: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: ضعيف. وقال غيره: «مَهِينٍ»: لا خَطَر له عند الناس[٥].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ رَجَع إلى آدم، أي: سوَّى خَلْقَه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، ثم رجع إلى ذرِّيَّته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

وقيل: ثم جعل ذلك الماءَ المَهينَ خَلْقاً معتدلاً، وركَّب فيه الروحَ، وأضافه إلى نَفْسِه تشريفاً، وأيضاً فإنه مِن فِعْله وخَلْقِه، كما أضاف العبدَ إليه بقوله: «عَبْدي». وعبَّر عنه بالنفخ؛ لأنَّ الروح في جنس الريح. وقد مضى هذا مبيَّناً في «النساء»[٦] وغيرها. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ثم أنتم لا تشكرون، بل تكفرون.

---

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٤، وعنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٢. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٥، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١.

(٣) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٩ عن قتادة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيء.

(٤) ١٥/ ١٧ - ١٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٥.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا قولُ مُنْكِري البعثِ، أي: هَلَكْنا وبَطَلْنا وصِرْنا تراباً. وأصلُه من قول العرب: ضلَّ الماء في اللَّبن: إذا ذهب. والعربُ تقول للشيء غَلَبَ عليه غيرُه حتى خَفِيَ فيه أثرُه: قد ضلَّ، قال الأخطل:

كـنـتَ الـقَـذَى فـي مـوجِ أَكْـدرَ مُـزْبِـدٍ قَـذَفَ الأَتِـيُّ بـه فـضـلَّ ضـلالا[١]

وقال قُطْرُب: معنى ضلَلْنا: غِبْنا[٢] في الأرض. وأنشد قولَ النابغة الذبيانيِّ:

فـآبَ مُـضِـلُّـوهُ بـعـيـنٍ جَـلِـيَّـةٍ وغُـودِرَ بـالـجَـوْلانِ حَـزْمٌ ونَـائِـلُ[٣]

وقرأ ابن مُحيصِن ويحيى بنُ يَعْمُر: «ضَلِلْنَا» بكسر اللَّام، وهي لغة[٤]. قال الجوهريُّ[٥]: وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ [سبأ: ٥٠]. فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلْتُ» ـ بكسر اللام ـ أَضَلُّ. وهو ضالٌّ تالٌّ، وهي الضلالةُ والتلالة. وأضلَّه، أي: أضاعه وأهلكه. يقال: أُضِلَّ الميّت: إذا دُفن؛ قال: وآب[٦] مُضِلُّوه، البيت.

---

(١) ديوان الأخطل ص٥٠ . وقوله: الأتيُّ، أي: السيل الغريب. القاموس (أتى)، والكلام في تفسير الطبري ١٨/ ٦٠٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٣٥٦ .

(٢) في (د) و(ظ): أغبنا، وفي النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ (والكلام منه): غُيِّبنا.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ ، واللسان (ضلل). وهو في ديوانه ص٩٠ برواية: مصَلُّوه. وفي الجمهرة ٣/ ٢٢٨ برواية: مصَلُّوهم. قال ابن دريد: لأنهم كانوا نصارى، ويروي الكوفيون: مُضِلُّوه. أي: دافِنوه. اهـ. وقال صاحب اللسان: وقوله: بعينٍ جَلِيَّة، أي: بخبر صادق أنه مات، والجولان: موضع بالشام. أي: دُفن بدَفْن النعمان الحزمُ والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني، والبيت من قصيدة في رثائه.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٨ عن يحيى بن وثاب، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣ عن أبي رجاء وطلحة.

(٥) في الصحاح (ضلل).

(٦) في (م): فآب، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح.

ابن السِّكّيت: أضللتُ بعيري: إذا ذهب منك. وضَللت المسجدَ والدار: إذا لم تَعْرِفْ موضعَهما. وكذلك كلُّ شيءٍ مقيمٍ لا يُهتَدَى له. وفي الحديث: «لعلِّي أَضِلُّ الله»[١] يريد: أضلُّ عنه، أي: أَخْفَى عليه، من قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَفِينا. وأضلَّه الله فضَلَّ؛ تقول: إنك تَهدِي الضالَّ ولا تهدي المتضالَّ.

وقرأ الأعمش والحسن: «صَلِلْنا» بالصاد، أي: أنتنَّا. وهي قراءة عليّ بن أبي طالب ﷺ[٢]. النحاس: ولا يُعرف في اللغة: صَلِلْنا، ولكن [يُعرف صَلَلْنا] يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ، وخَمَّ وأَخَمَّ: إذا أَنْتَن[٣]. الجوهريُّ: صلَّ اللحم يصِلُّ - بالكسر - صُلولاً، أي: أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً؛ قال الحُطَيئة:

ذاك فــتًــى يَــبــذُل ذا قِـــدْرِهِ لَا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولْ

وأَصَلَّ مِثْلُه[٤].

﴿إِنَّا[٥] لَفِي خَلْقٍ جديدٍ﴾ أي: نُخلَق بعد ذلك خَلْقاً جديداً؟ ويُقرأ: ﴿أَءِنَّا﴾[٦]. النحاس: وفي هذا سؤالٌ صعبٌ من العربية؛ يقال: ما العاملُ في «إذَا»، و«إنَّ» لا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠١٢) من حديث معاوية بن حيدة ﷺ في قصة الرجل الذي طلب أن يحرقوه بعد موته ثم يَذْروه، وقد سلف نحوه ١٤/ ٢٧٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٣، دون ذكر الأعمش، وزاد نسبتها لابن عباس وأبان بن سعيد بن العاص، وقال: وقرأ أيضاً بالصاد - مفتوحة اللام - الحسن بخلاف. غير أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، وأبا حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٠٠ نسبا إليهم القراءة بفتح اللام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣١. قال السمين في الدر المصون ٩/ ٨٤ - بعد أن ذكر قول النحاس -: وقد عرفها غيرُ أبي جعفر. اهـ. وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٤: صَلَّ يَصِلُّ، وصَلَّ يَصَلُّ - بالفتح -، والكسرُ أقوى اللغتين.

(٤) الصحاح (صلل)، والبيت في شرح ديوان الحطيئة ص٧٧.

(٥) في (د) و(ظ): أينا، وهي قراءة على ما يأتي.

(٦) قرأ نافع والكسائي: «إنا». والباقون من السبعة بالاستفهام؛ كلٌّ على أصله. ينظر السبعة ص٢٨٥-٢٨٦، والتيسير ص١٣٢ - ١٣٣.

يعمل ما بَعْدَها فيما قَبْلَها؟ والسؤالُ في الاستفهام أشدُّ؛ لأنَّ ما بعدَ الاستفهام أَجْدَرُ أَلَّا يَعمَلَ فيما قبلَه من «إنَّ»، كيف وقد اجتمعا؟ فالجوابُ على قراءة مَن قرأ: «إنَّا»: أنَّ العامل «ضَلَلْنا»، وعلى قراءة مَن قرأ: «أَئِنَّا» أنَّ العامل مضمَر، والتقدير: أَنُبْعَثُ إذا مِتْنا؟ وفيه أيضاً سؤالٌ آخر، يقال: أين جوابُ «إذا» على القراءة الأولى لأنَّ فيها معنى الشرط؟ فالقولُ في ذلك أنَّ بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جازَ هذا[(١)].

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ليس لهم جحودُ قدرةِ الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أنْ لا حسابَ عليهم، وأنَّهم لا يَلْقَوْن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لمَّا ذَكَر استبعادَهم للبعث؛ ذَكَر توفِّيهم وأنه يُعيدُهم. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ مِن تَوَفِّي العددَ والشيء: إذا استوفاه وقَبَضَه جميعاً. يقال: تَوَفَّاه الله، أي: استوفَى روحَه ثم قَبَضَه. وتَوفَّيتُ مالي من فلان، أي: استوفيته.

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ واسمه عزرائيل، ومعناه: عبد الله؛ كما تقدَّم في «البقرة»[(٢)]. وتَصرُّفُه كلُّه بأمرِ الله تعالى وبخَلْقِه واختراعه. وروي في الحديث أنَّ: «البهائم كلّها يتوفَّى الله أرواحَها دون مَلَك الموت» كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية[(٣)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣ ، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٥ .

(٢) ٢/ ٢٦٥ . وتسمية ملك الموت بعزرائيل أمر اشتهر عند كثير من أهل التفسير، ولم ينقل في ذلك نص صحيح.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ . والحديث أخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٢١ ، وأبو الشيخ في العظمة (١٢٣٢)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٦٤٥) عن أنس ﷺ. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وقال العقيلي: هذا الحديث لا أصل له.

قلت: وقد روي خلافُه، وأنَّ مَلَك الموت يتوفَّى أرواحَ جميعِ الخلائق حتى البرغوثُ والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارْفُقْ بصاحبي فإنَّه مؤمن» فقال مَلَك الموت عليه السلام: «يا محمد، طِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً، فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلَمْ أنَّ ما من أهلِ بيتِ مَدَرٍ ولا شعرٍ في بَرٍّ ولا بحرٍ إلَّا وأنا أَتَصفَّحُهم في كلِّ يومٍ خمسَ مرات، حتى لَأَنا أَعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أنِّي أردتُ أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمِرُ بقَبْضِها». قال جعفر بن عليٍّ: بلغني أنه يتصفَّحُهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماورديُّ(١).

وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغداديُّ قال: حدَّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلَّالُ قال: حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفَّار قال: حدَّثنا أبو بكر حامد المصريُّ قال: حدَّثنا يحيى بنُ أيوب العلَّاف قال: حدثنا سليمان ابن مُهير الكلابيُّ قال: حضرتُ مالك بن أنس ﷺ فأتاه رجلٌ فسأله: أبا عبد الله، البراغيثُ؛ أمَلَكُ الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطْرقَ مالك طويلاً ثم قال: أَلَها أنفُسٌ؟ قال: نعم! قال: مَلَكُ الموت يقبض أرواحها؛ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

قال ابن عطيةَ بعد ذِكْرِه الحديثَ(٢): وكذلك الأمرُ في بني آدم، إلَّا أنه نوعٌ شُرِّفَ

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥، وجعفر بن علي هو جعفر بن محمد بن علي راوي الخبر، وقد أخرجه هكذا منقطعاً أبو الشيخ في العظمة (٤٧٥)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٢٥٤)، والبزار (٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبي ﷺ. وفي إسناده عمرو بن شَمِر، قال الحافظ في الإصابة ٣/ ٩٣: متروك الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، ويعني بالحديث حديث أنس السالف: «البهائم كلُّها يتوفى الله أرواحها...».

بتصرُّفِ مَلَكٍ وملائكةٍ معه في قَبْضِ أرواحهم.

فخَلَقَ الله تعالى مَلَك الموت، وخَلَق على يديه قَبْضَ الأرواح واسْتِلالَها من الجسام وإخراجَها منها، وخَلَق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عَمَلَه بأمره، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»(١). والبارئُ خالقُ الكلِّ، الفاعِلُ حقيقةً لكلِّ فِعْلٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فملَكُ الموت يقبض، والأعوانُ يعالِجون، والله تعالى يُزْهِق الروح. وهذا هو الجمعُ بين الآيِ والأحاديث، لكنه لمَّا كان مَلَكُ الموت متولِّيَ ذلك بالوساطة والمباشَرة، أُضيف التوفِّي إليه كما أضيف الخَلْقُ للمَلَك، كما تقدَّم في «الحج»(٢).

ورُوي عن مجاهدٍ: أنَّ الدنيا بين يدي مَلَك الموت كالطَّسْتِ بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء(٣). وقد رويَ هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٤). ورويَ أنَّ مَلَك الموت لمَّا وكَّله الله تعالى بقَبْضِ الأرواح قال: ربِّ جعلتني أُذكر بسوءٍ ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى له: «إنِّي أجعل للموت عِلَلاً وأسباباً من الأمراض والأسقام يَنْسِبون الموتَ إليها فلا يذكُرك أحدٌ إلَّا بخير». وقد

(١) ٨/ ٤١٠.

(٢) ١٤/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٠٩، والطبري ١٨/ ٦٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٣٥) و(٤٣٦).

(٤) ص٩٣، وذكر المصنف في هذا المعنى حديثاً عن ابن عباس في قصة الإسراء، ولم نقف عليه عند غير المصنف، وأخرج ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢ عن زهير بن محمد عن النبي ﷺ مثل خبر مجاهد، وهو منقطع.

ذكرناه في «التذكرة» مستوفًى[١] ـ وقد ذَكَرنا أنه يدعو الأرواحَ فتَجيئُه ويقبضها، ثم يُسلِّمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ـ بما فيه شفاءٌ لمن أراد الوقوفَ على ذلك[٢].

الثانية: استدلَّ بهذه الآيةِ بعضُ العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض الأرواح. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذا أُخذ من لَفْظِه لا من معناه، ولو اطَّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]: إنها نيابةٌ عن الله تبارك وتعالى، ووكالةٌ في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: إنه وكالةٌ؛ فإنَّ الله تعالى ضَمِنَ الرزقَ لكلِّ دابَّةٍ، وخَصَّ الأغنياءَ بالأغذية، وأَوْعَزَ إليهم بأنَّ رِزْقَ الفقراء عندهم، وأَمر بتسليمه إليهم مقدَّراً[٤] معلوماً في وقتٍ معلوم، دبَّره بعلمه، وأَنْفَذه من حُكْمِه، وقدَّره بحِكْمته. والأحكامُ لا تتعلَّق بالألفاظ إلَّا أنْ تَرِد على موضوعاتها الأصليةِ في مقاصدها المطلوبة، فإنْ ظَهَرَتْ في غير مَقْصِدِها لم تُعلَّق عليها. أَلَا ترى أنَّ البيع والشراء معلومُ اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] ولا يقال: هذه الآيةُ دليلٌ على جواز مبايعةِ السيد لعبده؛ لأنَّ المَقصِدَيْن مختلفان.

أَمَا إنه إذا لم يكن بدٌّ من المعاني فيقال[٥]: إنَّ هذه الآيةَ دليلٌ على أنَّ للقاضي أن يَسْتَنيبَ مَن يأخذ الحقَّ ممَّن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فِعْلٌ، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

---

(١) ص٧٠ ، وأخرج نحوه أبو الشيخ في العظمة (٤٣٩) عن جابر بن زيد قوله.

(٢) ينظر التذكرة ص١١٩ وما بعدها، وذكر فيه المصنف حديث البراء ﷺ، وقد سلف تخريجه ٢١٨/٩ و ٣٨٧/١٤ .

(٣) في أحكام القرآن ١٤٨٨/٣ - ١٤٨٥ .

(٤) في (خ) و(م): مقداراً، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) العبارة في أحكام القرآن: أما إنه إذا لم يكن بدٌّ من التسوُّر على المعاني، ودفعِ الجهل عنها في غير موضعها، والإعراض عن المقاصد في ذلك فيقال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. قال الزجّاج(١): والمخاطبةُ للنبيِّ ﷺ مخاطبةٌ لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمدُ مُنْكِري البعثِ يومَ القيامة لرأيتَ العجبَ. ومذهبُ أبي العباس غيرُ هذا، وأن يكون المعنى: يا محمدُ، قل للمجرم: ولو ترى إذ المجرمون ناكِسو رؤوسهم عند ربِّهم لندمتَ على ما كان منك(٢).

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: من النَّدم والخِزْي والحُزن والذُّلِّ والغمِّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند محاسبةِ ربِّهم وجزاءِ أعمالهم. ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أي: أَبْصرنا ما كنَّا نكذِّب ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنَّا نُنْكِر. وقيل: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ وَعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ تصديقَ رُسُلك، أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدِّقون بالبعث؛ قاله النقَّاش. وقيل: مصدِّقون بالذي جاء به محمدٌ ﷺ أنه حقّ؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوريُّ: فأكْذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨](٣).

وقيل: معنى «إِنَّا مُوقِنُونَ» أي: قد زالت عنَّا الشُّكوكُ الآن، وكانوا يسمعون ويُبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبَّرون، وكانوا كَمَن لا يُبْصِر ولا يسمع، فلمَّا تنبَّهوا في الآخرة صاروا حينئذٍ كأنهم سمعوا وأبصروا.

وقيل: أي: ربَّنا لك الحجةُ، فقد أَبْصرنا رسلك وعجائبَ خَلْقِك في الدنيا،

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤ ، وأبو العباس هو محمد بن يزيد المبرِّد.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٩ .

وسمعنا كلامهم، فلا حجةَ لنا. فهذا اعترافٌ منهم، ثم طلبوا أن يُردُّوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: لمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ يقول: لو شئتُ لهديتُ الناسَ جميعاً فلم يَختلِفْ منهم أحدٌ ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ الآيةَ. ذَكَره ابن المبارك في «رقائقه» في حديثٍ طويل. وقد ذَكَرناه في «التذكرة»[1].

النحَّاس[2]: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنه في الدنيا. والآخَر: أنَّ سياق الكلام يدلُّ على أنه في الآخرة، أي: لو شئنا لرَدَدْناهم إلى الدنيا والمحنةِ كما سألوا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: حقَّ القولُ منِّي لأعذِّبنَّ مَن عصاني بنارِ جهنَّم. وعَلِم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردَّهم لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهذه الهدايةُ معناها خَلْقُ المعرفةِ في القلب. وتأويلُ المعتزلة: ولو شئنا لأكْرهناهم على الهداية بإظهارِ الآيات الهائلة، لكنْ لا يَحْسُنُ منه فِعْلُه؛ لأنه يَنْقُض الغرضَ المُجْرَى بالتكليف إليه، وهو الثوابُ الذي لا يُستحقُّ إلَّا بما يفعلُه المكلَّف باختياره[3].

---

(١) ص٤١٧، وقد ذكره المصنف فيه بتمامه، وورد بعضه في الزهد لابن المبارك ص٩١ (زوائد نعيم) وسقط معظمه بسبب سقط ورقة من الأصل كما ذكر محققه. وأخرجه من طريق ابن المبارك الطبري ١٧/ ١١٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٤٢.

وقالت الإماميَّة في تأويلها[١]: إنه يجوز أنْ يريد هُداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكنْ حقَّ القولُ منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هدايةُ الكلِّ إليها، قالوا: بل الواجبُ هدايةُ المعصومين، فأمَّا مَن له ذنبٌ فجائزٌ هدايته إلى النار جزاءً على أفعاله.

وفي جواز ذلك مَنْعٌ؛ لقَطْعِهم على أنَّ المراد: هُداها إلى الإيمان.

وقد تكلَّم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفايةٌ في أصول الدين. وأقربُ ما لهم في الجواب أنْ يقال: فقد بَطَل عندنا وعندكم أنْ يهديَهم الله سبحانه على طريق الإلجاءِ والإجبار[٢] والإكراه، فصار يؤدِّي ذلك إلى مذهب الجَبْريَّة، وهو مذهبٌ رَذْلٌ عندنا وعندكم، فلم يبق إلَّا أنَّ المهتدين من المؤمنين إنَّما هَداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصحَّ التكليفُ، فَمَن شاء آمَنَ وأطاع اختياراً لا جَبْراً؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]. ثم عقَّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠، والتكوير: ٢٩]. فوقع إيمانُ المؤمنين بمشيئتهم، ونَفَى أن يشاؤوا إلَّا أن يشاء الله، ولهذا أفرَطَتْ[٣] المُجْبرةُ لمَّا رأَوْا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ[٤] بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخَلْقُ مجبورون في طاعتهم كلِّها، التفاتاً إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وفرَّطت القدريةُ لمَّا رأوا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ بمشيئة العباد، فقالوا: الخَلْقُ خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

---

(١) الكلام من هذا الموضع حتى آخر تفسير الآية من حز الغلاصم لشيث بن إبراهيم ص٨٦ – ٨٨.

(٢) في حز الغلاصم: على طريق الإلجاء؛ لأن الإلجاء هو الإجبار...

(٣) في النسخ: فرطت، والمثبت من حز الغلاصم.

(٤) في (ظ): أن هدايتهم مقرونة.

ومذهبُنا هو الاقتصادُ في الاعتقاد، وهو مذهبٌ بين مَذْهَبَي المُجْبرةِ والقدرية، وخيرُ الأمور أوساطُها. وذلك أنَّ أهلَ الحقِّ قالوا: نحن نفرِّق بين ما اضطُرِرْنا إليه وبين ما اخْتَرْناه، وهو أنَّا نُدْرِكُ تَفْرِقةً بين حركة الارتعاش الواقعةِ في يد الإنسان بغيرِ مُحاولتِه وإرادتِه ولا مقرونة بقُدْرَته، وبين حركةِ الاختيار إذا حرَّك يده حركةً مماثلةً لحركة الارتعاش. ومَن لا يفرِّق بين الحركتين: حركةِ الارتعاش وحركة الاختيار ـ وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراكِ حاسَّته ـ فهو معتوهٌ في عقله، ومختلٌّ في حِسِّه، وخارجٌ من حِزْب العقلاء. وهذا هو الحقُّ المُبين، وهو طريقٌ بين طريقي الإفراطِ والتفريط، و:

كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذَمِيمُ[(١)]

وبهذا الاعتبارِ اختارَ أهلُ النَّظر من العلماء أنْ سَمَّوْا هذه المنزلةَ بين المنزلتين كَسْباً[(٢)]، وأخذوا هذه التسميةَ من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من النسيان الذي لا ذِكْرَ معه، أي: لم يعملوا لهذا اليوم، فكانوا بمنزلةِ النَّاسِين. والآخر: أنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى[(٣)] تركتُم، وكذا ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ﴾؛ واحتجَّ محمد بنُ يزيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥] قال: والدليلُ على

---

(١) سلف ٧/ ٢٢٩ عن الإمام حَمْد بن محمد الخطابي، وصدره: ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِدْ. وإنما ضمَّنه الخطابي في شعره، كما ذكر البغدادي في الخزانة ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، حيث ذكر صدره برواية ثانية وقرن به بيتاً آخر وقال: وكمله بالمصاريع الثلاثة صاحب العباب في شرح أبيات الآداب (وهو حسن بن صالح العدوي اليمني) وقال البغدادي: ولا أعلم قائل هذين البيتين، ولا رأيتهما إلا في كتاب العباب.

(٢) مذهب الأشاعرة في مسألة الكسب يؤول إلى سلب الإرادة عن العبد والوقوع في مذهب المجبِرة.

(٣) في النسخ: بما، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤، والكلام منه.

أنَّه بمعنى تَرَكَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكَّره، وأنشد:

كأنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأدِ[١]

أي: تركوه. ولو كان من النِّسيان لكانوا[٢] قد عملوا به مرَّةً.

قال الضحَّاك: «نَسِيتُمْ» أي: تركتُم أمري. يحيى بن سلام: أي: تركتُم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾: تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّي. مجاهد: تركناكم في العذاب[٣].

وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ وبناءِ الفعل على «إنَّ» واسمِها تشديدٌ في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا، أي: ما أنتم فيه من نَكْسِ الرؤوس والخِزي والغَمِّ بسبب نسيان الله. أو: ذوقوا العذاب المخلَّد، وهو الدائم الذي لا انقطاعَ له في جهنم.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبَّر بالذَّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً؛ لإحساسها به كإحساسها بذوقِ المطعوم؛ قال عمر بن أبي ربيعة[٤]:

فذُقْ هَجْرَها إنْ كنتَ تَزْعُم أنه رشادٌ[٥] ألا يا ربَّما كَذَبَ الزَّعْمُ

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٢ ، والخزانة ٣/ ١٨٥ وفيه: الهاء في «كأنه» عائدة على قرن ثور مذكورٍ قبلاً، وخارجاً حال من الهاء، والضمير في صفحته عائد على كلب مذكورٍ قبلاً، والسَّفُّود خبر كأن، وهي الحديدة التي يشوى بها الكباب، شبَّه قرنَ الثور النافذَ من الكلب عندما ضربه به بسَفُّود فيه شواءٌ. والمفتأد المشتَوَى والمطبخ، وهو محل القَأْد، وهو الطبخ والنضج.

(٢) في النسخ: لكان، والمثبت من إعراب القرآن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠ .

(٤) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠ ، والكلام منه، والذي في المصادر أنه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦ ، وأمالي القالي ٢/ ٢٠ ، والأغاني ٩/ ١٥٠ ، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١ ، واللسان (زعم)، والخزانة ٩/ ١٣٣ .

(٥) في النسخ: أنها فساد، والمثبت من النكت والعيون، وهو موافق للمصادر.

الجوهريُّ[١]: وذُقْت ما عند فلان، أي: خَبِرْتُه. وذُقْتُ القَوْس: إذا جَذَبتَ وَتَرَها لتَنْظُر ما شِدَّتُها. وأذاقه الله وَبَالَ أمره؛ قال طُفيل:

فذوقوا كما ذُقنا غَدَاة مُحَجِّرٍ ... من الغيظ في أكبادِنا والتَّحَوُّبِ[٢]

وتذوَّقته، أي: ذُقْتُه شيئاً بعد شيء. وأمرٌ مُسْتَذاقٌ، أي: مجرَّبٌ معلوم؛ قال الشاعر:

وعهدُ الغانيات كعهدِ قَيْنٍ ... وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتَذاقِ[٣]

والذوَّاق: المَلُول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

هذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: إنَّهم لإلْفِهم الكفرَ لا يؤمنون بك، إنَّما يؤمنُ بك وبالقرآن المتدبِّرون له والمتَّعِظون به، وهم الذين إذا قُرئ عليهم القرآن ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: ركَّعاً ـ قال المهدوِيُّ: وهذا على مذهب مَن يرى الركوعَ عند قراءةِ السَّجدة ـ واستدلَّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤][٤].

وقيل: المرادُ به السُّجود، وعليه أكثرُ العلماء، أي: خَرُّوا سُجَّداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خَلَطوا التسبيح بالحمد، أي: نزَّهوه وحَمِدوه، فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده، أي: تنزيهاً

(١) في الصحاح (ذوق).

(٢) سلف ٦/ ٢٣، وطفيل هو ابن عوف الغَنَوي.

(٣) قائله نهشل بن حَرِّيّ، كما في الحيوان ٥/ ٣٠، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٢٧، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٣، وأساس البلاغة (ذوق)، ومنتهى الطلب ٨/ ١٧، واللسان (ذوق). قال المرتضى: القين: الحدَّاد، والجعائل جمع جعالة، وهي أجرته، أراد: أن القين إذا عدم الجُعالة؛ رحل ولم يستقرَّ في مكان.

(٤) ذكر خبر ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦١.

لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صَلَّوا حَمْداً لربِّهم. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته؛ قاله يحيى بن سلام. النقَّاش: لا يَسْتَكْبِرون كما اسْتَكْبَر أهلُ مكة عن السجود[١].

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: مُتجافيةً جنوبُهم. والمضاجعُ جمعُ مَضْجَع، وهي مواضع النوم. ويَحتمِلُ: عن وقتِ الاضطجاع، ولكنَّه مَجازٌ، والحقيقةُ أَوْلى. ومنه قولُ عبد الله بن رَوَاحة:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه إذا انشقَّ معروفٌ من الصبحِ ساطِعُ
يبيتُ يُجافي جَنْبَه عن فراشه إذا استثقلتْ بالمشركين المَضَاجِعُ[٢]

قال الزجَّاج والرُّمَّانيّ: التَّجافي: التَّنحّي إلى جهةِ فوق. وكذلك هو في الصَّفْح عن المخطئ في سَبٍّ ونحوِه. والجُنوبُ جمعُ جَنْب[٣].

وفيما تتجافَى جنوبُهم عن المضاجع لأَجلِه قولان: أحدهما: لذكرِ الله تعالى، إمَّا في صلاةٍ، وإمَّا في غيرِ صلاة؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثاني: للصلاة[٤].

وفي الصلاة التي تتجافَى جُنوبُهم لأَجْلها أربعةُ أقوال:

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٦١ .

(٢) سلف البيتان ٦/ ٣٤٦ باختلاف يسير في البيت الأول، وهما بهذه الرواية في صحيح البخاري (١١٥٥) حيث أخرج من طريق الهيثم بن أبي سنان: أنه سمع أبا هريرة ﷺ ـ وهو يَقْصُصُ في قَصَصه ـ وهو يذكر رسول الله ﷺ: إنَّ أخاً لكم لا يقول الرَّفَث. يعني بذلك عبد الله بن رواحة، ثم ذكر ثلاثة أبيات منها هذان البيتان.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن ٤/ ٢٠٧ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦١ - ٣٦٢ ، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/ ٦١٢ - ٦١٣ .

أحدها: التَّنفُّلُ بالليل؛ قاله الجمهور من المفسِّرين، وعليه أكثرُ الناس، وهو الذي فيه المدحُ[(١)]، وهو قولُ مجاهدٍ والأوزاعيِّ ومالك بنِ أنس والحسن بنِ أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم[(٢)]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنَّهم جُوْزُوا على ما أَخْفَوْا بما خَفِي، والله أعلم. وسيأتي بيانُه.

وفي قيام الليل أحاديثُ كثيرةٌ؛ منها حديثُ معاذ بن جَبَل أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أَلَا أدُلُّك على أبوابِ الخير: الصومُ جُنَّة، والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جَوْفِ الليل» قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أخرجه أبو داود الطَّيالسيُّ في «مسنده»، والقاضي إسماعيل بنُ إسحاق، وأبو عيسى الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[(٣)].

الثاني: صلاةُ العشاء التي يقال لها: العتمة؛ قاله الحسن وعطاء[(٤)]. وفي الترمذيِّ عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظارِ الصلاة التي تُدْعَى: العَتمَة، قال: هذا حديثٌ حسنٌ [صحيح] غريب[(٥)].

الثالث: التَّنفُّل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادةُ وعكرمة[(٦)]. ورَوى أبو داود[(٧)] عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: كانوا يتنفَّلون ما بين المغرب والعشاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، وأخرجه عن الحسن أبو داود (١٣٢١)، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٠، والطبري ١٨/ ٦١٢ عنه وعن مجاهد.

(٣) سنن الترمذي (٢٦١٦)، ومسند الطيالسي (٥٦٠)، وهو عند أحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ١/ ٤٢٩، وتحفة الأحوذي ٩/ ٥٥.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٧) في سننه (١٣٢١)، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٠٩ - ٦١١.

الرابع: قال الضحاك: تَجَافي الجَنْبِ: هو أن يصلِّي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدَّرداء وعُبادة[١].

قلت: وهذا قولٌ حَسَنٌ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى، وذلك أنَّ مُنتظِرَ العشاءِ - إلى أنْ يصلِّيَهَا - في صلاةٍ وذكرٍ لله جلَّ وعزَّ، كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يَزالُ الرجلُ في صلاةٍ ما انْتظَر الصلاة»[٢]. وقال أنس: المرادُ بالآية انتظارُ صلاة العشاء الآخِرة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان يؤخِّرها إلى نحوِ ثُلُثِ الليل، قال ابن عطيةَ[٣]: وكانت الجاهليةُ ينامون مِن أوّل الغروب ومن أيِّ وقتٍ شاء الإنسان، فجاء انتظارُ وقتِ العشاء غريباً شاقًّا.

ومصلِّي الصبحِ في جماعةٍ لاسيَّما في أوّل الوقت كما كان عليه الصلاة والسلام يصلِّيها. والعادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصلاة في أوّل الوقت، يقومُ سَحَراً يتوضَّأ ويصلِّي ويذكر الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يَطْلعُ الفجر. فقد حَصَل التَّجافي أوَّلَ الليل وآخِرَه. يَزِيدُ هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ نصفَ اللَّيل، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ اللَّيلَ كلَّه»[٤]. ولفظُ الترمذيِّ وأبي داودَ في هذا الحديث: «مَن شَهِدَ العشاءَ في جماعةٍ كان له قيامُ نصفِ ليلةٍ، ومَن صلَّى العشاءَ والفَجْرَ في جماعةٍ كان له كقيامِ ليلة»[٥]. وقد مضى في سورة النور عن كعب فيمَن صلَّى بعدَ العشاءِ الآخِرة

---

(١) ذكره عن الضحاك ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، وعن أبي الدرداء وعبادة الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣ ، والبغوي ٣/ ٥٠٠ . قال ابن عطية: وهذا قول حسن يساعده لفظ الآية.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٤٧).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، وما قبله منه، وخبر أنس ﷺ سلف بنحوه قريباً. وأحاديث تأخير النبي ﷺ لصلاة العشاء سلفت ٢/ ٤٥٢ .

(٤) صحيح مسلم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠ - ١٨١ ، و١٥/ ٣٣٧ .

(٥) سنن الترمذي (٢٢١)، وسنن أبي داود (٥٥٥)، وسلف ٤/ ١٨١ .

أربعَ ركعاتٍ كنَّ له بمنزلةِ ليلةِ القَدْر[١].

وجاءت آثارٌ حِسَانٌ في فَضْلِ الصلاة بين المغرب والعشاء وقيامِ الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال: حدَّثني محمد بن الحجاج ـ أو ابن أبي الحجاج ـ أنه سمع عبد الكريم يحدِّث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن ركع عَشْرَ ركعاتٍ بين المغرب والعشاء بُنيَ له قصرٌ في الجنة». فقال له عمر بن الخطاب: إذاً تَكْثُر قصورُنا وبيوتُنا يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثرُ[٢] وأفضلُ» أو قال: «أَطْيبُ»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صلاةُ الأوَّابين الخلوةُ التي بين المغرب والعشاء حتى يثوبَ الناس إلى الصلاة[٤].

وكان عبد الله بن مسعود يصلِّي في تلك الساعةِ ويقول: [نِعْمَ] صلاةُ الغفلةِ بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك[٥].

ورواه الثعلبيُّ مرفوعاً عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن جَفَتْ جَنْباهُ عن المَضَاجِع ما بينَ المغربِ والعشاءِ؛ بُنيَ له قصران في الجنة مسيرةَ عام، وفيهما من

---

(١) ينظر ١٥/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) في (د) و(م): أكبر.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٢٦٤) دون قوله: أو ابن أبي الحجاج، وعبد الكريم هو ابن الحارث، وهذا إسناد منقطع. كما أن محمد بن الحجاج اللخمي قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: هو وضع حديث الهريسة. وقال الدارقطني: كذاب. الميزان ٣/ ٥٠٩ .

(٤) الزهد لابن المبارك (١٢٦٠)، وفي إسناده موسى بن عبيدة بن نشيط، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٥) في الزهد (١٢٦١)، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٤٧٢٥)، والطبراني في الكبير (٩٤٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه جابر الجعفي، وفيه كلام كثير. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف. وأخرجه الطبراني (٩٤٤٩) بإسناد آخر عن ابن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه ليث بن أبي سليم، وفيه كلام. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: صدوق اختلط جدًا ولم يتميز حديثه فتُرك.

الشجر ما لو نَزَلَها أهلُ المشرقِ والمغرب لأَوْسَعتْهم فاكهةً»[١]. وهي صلاةُ الأوَّابين وغَفْلة الغافلين، وإنَّ من الدعاء المستجابِ الذي لا يُردُّ الدعاءَ بين المغرب والعشاء.

فصل في فضل التَّجَافي: ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُمِ الحامِدون لله على كلِّ حال. فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. ثم ينادي ثانيةً: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُمِ الذين كانت جنوبُهم تتجافى عن المضاجع ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قال: فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثةً: ستعلمون اليوم مَن أصحابُ الكرم؛ لِيَقُمِ الذين كانوا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، فيقومون فيسرَّحون إلى الجنة[٢].

ذكره الثعلبيُّ مرفوعاً عن أسماء بنتِ يزيد: قال النبيُّ ﷺ: «إذا جَمعَ الله الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ تسمعه الخلائقُ كلُّهم: سيعلم أهلُ الجمع اليومَ مَن أَوْلى بالكَرَمِ، لِيَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع. فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانيةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلَى بالكرم؛ لِيَقُمِ الذين لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر الله. فيقومون، ثم ينادي الثالثةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلى بالكرم؛ لِيَقُمِ الحامِدون لله على كلِّ حال في السَّرَّاء والضرَّاء. فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسَبُ سائرُ الناس»[٣].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الزهد (٣٥٣ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١١٢٢)، وحسن إسناده الحافظ في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد به. وعبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب به. وأبان متروك، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩ من طريق عبد الله بن =

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن أبي ذرّ قال: ثلاثةٌ يَضْحَك الله إليهم ويَستبشرُ الله بهم: رجلٌ قام من الليل وترك فراشَه ودِفْئه، ثم توضَّأ فأَحْسَنَ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فيقولُ الله لملائكته: ما حَمَلَ عبدي على ما صَنَع؟ فيقولون: ربَّنا أنت أَعْلَمُ به منَّا. فيقول: أنا أعلمُ به ولكنْ أَخْبِروني. فيقولون: رَجَّيته شيئاً فَرَجَاه، وخوَّفْتَه فخافه. فيقول: أُشْهِدُكم أنّي قد أَمَّنتُه مما خاف، وأَوْجَبْتُ له ما رَجَاه. قال: ورجلٌ كان في سَرِيَّةٍ فلقيَ العدوَّ، فانهزم أصحابه وثَبَتَ هو حتى يُقتَلَ أو يَفْتح الله عليهم، فيقول الله لملائكته مثلَ هذه القصة. ورجل سَرَى في ليلةٍ، حتى إذا كان في آخِر الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلِّي، فيقول الله لملائكته...» وذكر القصة(١).

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: داعِينَ. ويَحتَمِل أن تكون صفةً مُستأنَفَةً، أي: تتجافى جنوبُهم وهم أيضاً في كلِّ حالٍ يدعون ربَّهم لَيْلَهم ونهارَهم(٢). و﴿خَوْفًا﴾ مفعولٌ من أجْلِه. ويجوز أن يكون مصدراً. ﴿وَطَمَعًا﴾ مثله، أي: خوفاً من العذاب، وطمعاً في الثواب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تكونُ «ما» بمعنى الذي، وتكونُ مصدراً، وفي كِلَا الوجهين يجب أن تكون منفصلةً من «مِن»(٣).

= عطاء عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المِزِّي في تهذيب الكمال ١٥/ ٣١٢.

(١) الزهد لابن المبارك (١٢١٢). وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٢) عن معمر، عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء به. وأخرجه بنحوه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ كما في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٥. و«ما» في هذا الموضع موصولة بـ «مِن» في رسم المصحف، وذكر أبو عمرو الداني في المقنع ص٦٩ : أن «من ما» مقطوعة في ثلاثة مواضع: الآية (٢٥) من سورة النساء، والآية (٢٨) من سورة الروم، والآية (١٠) من سورة المنافقين.

و«يُنْفِقُون» قيل: معناه الزكاةُ المفروضة. وقيل: النوافل، وهذا القولُ أَمْدَحُ[١].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قرأ حمزةُ: ﴿ما أُخفيْ لهم﴾ بإسكان الياء. وفَتَحَها الباقون[٢]. وفي قراءةِ عبد الله: «ما نُخْفي» بالنون مضمومة[٣]. وروى المفضَّل عن الأعمش: «ما يُخْفَى لهم» بالياء المضمومةِ وفَتْحِ الفاء[٤]. وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: «مِن قُرَّاتِ أَعْيُن»[٥].

فمَنْ أَسْكَنَ الياءَ مِن قوله: «ما أُخفِيْ» فهو مستقبَلٌ، وألفُه ألفُ المتكلِّم، و«ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أُخفي» وهي استفهام، والجملةُ في موضع نصب؛ لوقوعها موقعَ المفعولَيْنِ[٦]، والضميرُ العائدُ على «ما» محذوف[٧].

ومَن فَتَح الياءَ فهو فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، و«ما» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ «أُخْفيَ» وما بعده، والضميرُ في «أُخْفيَ» عائدٌ على «ما»[٨].

قال الزجَّاج: ويُقرأ: «ما أَخْفَى لهم»، بمعنى: ما أَخْفَى الله لهم[٩]. وهي قراءةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) السبعة ص٥١٦، والتيسير ص١٧٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٥) المحتسب ٢/ ١٧٤.

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) وهذا إذا جعلنا «ما» موصولة بمعنى الذي، فـ«ما» يجوز أن تكون استفهامية كما سلف، ويجوز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: أخفيه، وتكون «ما» في موضع نصب بـ«تعلم». مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، والدر المصون ٩/ ٨٧ - ٨٨.

(٨) ويجوز في «ما» الوجهان على هذه القراءة أيضاً، فإن كانت استفهامية فهي في موضع رفع بالابتداء، وإن كانت موصولة فهي في موضع نصب بـ«تعلم»، والعائد هو الضمير المرفوع في «أُخفيَ». ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨.

محمد بنِ كعب[١]، و«ما» في موضعِ نصب.

المهدوِيُّ: ومَن قرأ: «قرَّات أعين» فهو جمعُ قُرَّة، وحَسُنَ الجمعُ فيه لإضافته إلى جمع، والإفرادُ لأنَّه مصدر، وهو اسمٌ للجنس.

وقال أبو بكر الأنبارِيُّ: وهذا غيرُ مخالفٍ للمصحف؛ لأنَّ تاء «قُرَّة» تكتَبُ تاءً على لغةِ مَن يُجري الوصلَ على الوقف، كما كتبوا: «رحمت الله» بالتاء. ولا يُستنكر سقوطُ الألفِ من «قُرَّات» في الخطِّ، وهو موجودٌ في اللَّفْظ، كما لم يُستنكَر سقوطُ الألف من السماوات، وهي ثابتةٌ في اللسان والنُّطق.

والمعنى المرادُ: أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تَعْلَمْه نفسٌ ولا بشرٌ ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآيةِ قال النبيُّ ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قَلْبِ بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. خرَّجه الصَّحيح من حديثِ سهل بن سعد الساعديّ[٢].

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر[٣]. وقال ابن عباس: الأمرُ في هذا أجلُّ وأعظمُ من أن يُعرف تفسيره[٤].

قلت: وهذه الكرامةُ إنَّما هي لأعلى أهلِ الجنة منزلاً، كما جاء مبيَّناً في «صحيح» مسلم[٥] عن المغيرة بنِ شُعبةَ يرفعُه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٢٥)، وهو عند أحمد (٢٢٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢، والطبري ١٨/ ٦١٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٣.

(٥) برقم (١٨٩): (٣١٢).

عليه السلام ربَّه فقال: يا ربِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يأتي بعدما يُدخَل أهلُ الجنة الجنةَ، فيقال له: ادخُل الجنةَ. فيقول: أيْ ربّ، كيف وقد نَزَل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ! فيقول: لك ذلك ومثلُه معه ومثلُه ومثلُه ومثلُه[1]، فقال في الخامسة: رضيتُ رَبِّ! فيقال: هذا لك وعَشَرةُ أمثاله، ولك ما اشتهتْ نَفْسُك ولذَّتْ عينك. فيقول: رضيتُ رَبِّ! قال: رَبِّ، فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ؛ غَرَسْتُ كرامتَهم بيدي، وخَتمتُ عليها، فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يَخْطُرْ على قلب بشر». قال: «ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾». وقد رُوي عن المغيرة موقوفاً قوله[2].

وخرَّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، ذُخْراً، بَلْهَ ما أَطْلَعَكُمْ [الله] عليه» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3].

وقال ابن سيرين: المرادُ به: النظرُ إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أَخْفَى القومُ أعمالاً، فأَخْفَى الله تعالى لهم ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أذنٌ سمعت[4].

---

(١) في (ظ): «ومثله معه». في المواضع الأربعة.

(٢) صحيح مسلم (١٨٩): (٣١٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٤): (٤) وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (١٠٠١٧)، والبخاري (٤٧٨٠).
قوله: بله، هو من أسماء الأفعال، بمعنى: دع واترك. والمعنى: دَعْ عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. ينظر النهاية (بله)، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٦٦ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٤ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: ليس المؤمنُ كالفاسق؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثوابَ العظيم. قال ابن عباس وعطاء ابن يَسار: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بنِ عُقبة بن أبي مُعَيْط، وذلك أنهما تَلاحَيَا، فقال له الوليد: أنا أَبْسَطُ منك لساناً، وأَحَدُّ سِناناً، وأَرَدُّ للكتيبة، وروي: وأَمْلأُ في الكتيبة جسداً. فقال له عليٌّ: اسكتْ! فإنك فاسقٌ، فنزلت الآية[١].

وذكر الزجَّاج والنَّحَّاس أنها نزلت في عليٍّ وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط؛ قال ابن عطية[٢]: وعلى هذا يَلزمُ أن تكون الآيةُ مكّيةً؛ لأنَّ عُقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكةَ مُنْصَرَفَ رسولِ الله ﷺ من بدر. ويُعترضُ القولُ الآخَرُ بإطلاق اسمِ الفسْقِ على الوليد. وذلك يَحتَمِلُ أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أوْ لِمَا رُوي من نَقْلِه عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] على ما يأتي في «الحُجُرات» بيانُه، ويَحتمِلُ أن تُطْلِقَ الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرفٍ ممَّا يتّقى[٣]، وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان ﷺ، وصلَّى الصبحَ بالناس ثم التفتَ وقال: أتريدون أن أزيدكم[٤]، ونحو هذا ممَّا يطول ذِكْرُهُ.

---

(١) أخرجه عن ابن عباس أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٦٧-٣٦٨. وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٩ - ٥٨٠ دون تسمية علي ﷺ والوليد. وأخرجه عن عطاء الطبري ١٨/ ٦٢٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣، وما قبله منه. وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٨، أما النحاس فالذي ذكره في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦، وفي معاني القرآن ٥/ ٣٠٧: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وليس عقبة بن أبي معيط.

(٣) في (د): نبغي، وفي (م) ومطبوع المحرر الوجيز: يبغي، ولم تجود في (خ)، وسقط هذا الموضع من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٠٧)، وأحمد (٦٢٤) و(١٢٣٠).

الثانية: لمَّا قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسَّقهم بالكفر ـ لأنَّ التكذيب في آخِر الآية يقتضي ذلك[١] ـ اقتضى ذلك نفيَ المساواةِ بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القِصَاص بينهما؛ إذ مِن شَرْطِ وجوبِ القِصَاصِ المساواةُ بين القاتل والمقتول. وبذلك احتجَّ علماؤنا على أبي حنيفةَ في قَتْلِه المسلمَ بالذِّمِّيّ. وقال: أراد نَفْيَ[٢] المساواةِ هاهنا في الآخِرة في الثواب، وفي الدنيا في العدالة. ونحن حَمَلْناه على عمومه، وهو أصحّ؛ إذ لا دليلَ يخصُّه؛ قاله ابن العربيّ[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ قال الزَّجَّاج وغيره: «مَنْ» يَصْلُح للواحد والجمع[٤]. النحَّاس[٥]: لفظُ «مَنْ» يؤدِّي عن الجماعة، فلهذا قال: «لا يستوون»؛ هذا قولُ كثيرٍ من النحويين. وقال بعضهم: «لا يستوون» لاثنين؛ لأنَّ[٦] الاثنين جمع، لأنه واحدٌ جُمع مع آخَر. وقاله الزجَّاج أيضاً. والحديثُ يدلُّ على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال: نزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ في عليّ بن أبي طالب ﷺ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط[٧]. وقال الشاعر:

ألـيـس الـمـوتُ بـيـنـهـمـا سـواءً ... إذا مـاتـوا وصـاروا فـي الـقـبـورِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أخبر عن مَقَرِّ

---

(١) يعني في آخر الآية (٢٠).

(٢) في (د) و(ظ): بنفي.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٠ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦ .

(٦) في إعراب القرآن: إلا أن، بدل: لأن.

(٧) سلف في المسألة الأولى.

(٨) سلف ٦/ ١٢١ .

الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جناتُ المأوى، أي: يأوون إلى الجنات، فأضاف الجناتِ إلى المأوى؛ لأنَّ ذلك الموضع يتضمَّن جنات. ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة. والنُّزُلُ: ما يُهيَّأ للنازلِ والضَّيف. وقد مضى في آخِر «آل عمران»[1] وهو نصبٌ على الحال من الجنات، أي: لهم الجناتُ معدَّةً، ويجوز أن يكون مفعولاً له.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مُقامُهم فيها. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: إذا دَفَعهم لهبُ النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في «الحج»[2].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خَزَنةُ جهنم، أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانُه[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال الحسنُ وأبو العاليةِ والضحَّاك وأُبَيّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعيُّ: العذابُ الأدنى: مصائبُ الدنيا وأسقامُها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا. وقاله ابن عباس[4]. وعنه أيضاً: أنه الحدود[5].

---

(١) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٢) ١٤/ ٣٤٥ .

(٣) ص٢٦ و٢٧ من هذا الجزء.

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٧ - ٦٢٩ ، وأخرجه بنحوه عن أبيٍّ أيضاً مسلم (٢٧٩٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٧٣).

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٢٩ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣ : ويتجه على هذا التأويل أن تكون في فَسَقَة المؤمنين.

وقال ابن مسعود والحسين بن عليٍّ وعبد الله بن الحارث: هو القتلُ بالسيف يومَ بدر[١].

وقال مقاتل: الجوعُ سبعَ سنين بمكة حتى أكلوا الجِيَفَ[٢]؛ وقاله مجاهد[٣]. وعنه أيضاً: العذاب الأدنى: عذابُ القبر، وقاله البراء بن عازب[٤]، قالوا: والأكبرُ: عذابُ يوم القيامة؛ قال القُشَيريُّ: وقيل: عذاب القبر، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال: ومَن حَمَل العذابَ على القتل قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجع مَن بقيَ منهم. ولا خلافَ أنَّ العذاب الأكبر عذابُ جهنَّم، إلَّا ما رويَ عن جعفر بن محمد: أنه خروجُ المهديِّ بالسيف، والأدنى غلاءُ السعر[٥].

وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قولِ مجاهدٍ والبراء: أي: لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛ كقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وسُمِّيتْ إرادةُ الرجوعِ رجوعاً كما سُمِّيتْ إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «يُرْجَعُون» على البناء للمفعول؛ ذكره الزَّمَخْشري[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلَمُ لنفسه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٩ - ٦٣٠ ، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين، وكذلك وقع في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣ .

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٠ بلفظ: القتل والجوع لقريش في الدنيا.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٨/ ٦٣١ .

(٥) ذكره عن جعفر الصادق الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ .

(٦) في الكشاف ٣/ ٢٤٥ .

أي: بحُجَجِه وعلاماته ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بتركِ القبول. ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: فلا تكن يا محمد في شكٍّ من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس، وقد لقِيَه ليلةَ الإسراء[(١)]. قتادة: المعنى: فلا تَكُنْ في شكٍّ من أنَّك لقيتَه ليلةَ الإسراء[(٢)]. والمعنى واحد.

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها[(٣)].

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتابَ بالقبول؛ قاله مجاهدٌ والزجّاج[(٤)].

وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فأوذيَ وكُذِّب، فلا تكن في شكٍّ من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى. فالهاءُ عائدةٌ على محذوف، والمعنى: مِن لقاءِ ما لاقَى. النحّاس[(٥)]: وهذا قولٌ غريب، إلَّا أنه من رواية عمرو بن عُبيد.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: قل يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الَّذِي وُكِّلَ

---

(١) ذكره عن ابن عباس بنحوه البغوي ٣/ ٥٠٣، وحديث ابن عباس في لقاء النبي ﷺ موسى عليه السلام في الإسراء أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، والطبري ١٨/ ٦٣٦.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٣٦، وأخرجه بنحوه مسلم إثر الحديث (١٦٥).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٦٦.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧، وما قبله منه.

بكم، فلا تكن في مِرْيةٍ من لقائه، فجاء معترِضاً بين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(١)].

والضميرُ في «وجَعَلْناه» فيه وجهان: أحدهما: جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني: جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن[(٢)].

﴿وجَعَلْنَا منهم أَيِمَّةً﴾ أي: قادةً وقُدْوةً يُقتَدَى بهم في دينهم. والكوفيون يقرؤون: ﴿أَئِمَّةً﴾[(٣)]؛ النحاس[(٤)]: وهو لحنٌ عند جميع النَّحْويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمةٍ واحدة، وهو من دقيقِ النحو؛ وشَرْحُه: أنَّ الأصل: «أَأْمِمَة»، ثم أُلقيتْ حركةُ الميم [الأولى] على الهمزة وأُدغمت الميم [في الميم] وخفِّفت الهمزة الثانية لئلَّا يجتمعَ همزتان، والجمعُ بين همزتين في حرفين بعيد، فأمَّا في حرفٍ واحدٍ[(٥)] فلا يجوز إلَّا بتخفيف الثانية، نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أَوَمُّ من هذا وأَيَمّ، بالواو والياء. وقد مضى هذا في «براءة»[(٦)]، والله تعالى أعلم.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخَلْقَ إلى طاعتنا .﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: أَمَرْناهم بذلك. وقيل: «بأمْرِنا» أي: لأَمْرِنا، أي: يهدون الناس لدِيننا. ثم قيل: المرادُ الأنبياءُ عليهم السلام؛ قاله قتادة[(٧)]. وقيل: المرادُ الفقهاءُ والعلماء.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قراءةُ العامَّة: «لَمَّا» بفَتْحِ اللام وتشديدِ الميم وفَتْحِها، أي: حين

---

(١) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٦٦ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٧ .

(٣) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وسهَّل الثانية نافع وأبو عمرو وابن كثير. ينظر التيسير ص٣٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) يعني في كلمة واحدة. ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٩ .

(٦) ١٠/ ١٢٧ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣٤٤ دون نسبة. وأخرج الطبري عن قتادة أنه قال في معنى «أئمة»: رؤساء في الخير.

صبروا. وقرأ يحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب: ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾[(١)] أي: لِصَبْرِهم جعلناهم أئمةً. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابنِ مسعود: «بما صَبَروا» بالباء[(٢)].

وهذا الصبرُ صبرٌ على الدِّين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيُجازي كُلًّا بما يَستحقّ. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاه النقاش[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون، فهذه قراءةٌ بيِّنة[(٤)]. النحاس: وبالياء فيها إشكالٌ؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعلُ لـ «يَهْدِ»؟ فتكلَّم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: «كَمْ» في موضعِ رفعٍ بـ «يَهْدِ». وهذا نقضٌ لأصول النحويِّين في قولهم: إنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قَبْلَه، ولا في «كَمْ» بوجهٍ، أعني ما قَبْلَها. ومذهبُ أبي العباس: أنَّ «يهْدِ» يدلُّ على الهُدَى؛ والمعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ لهم الهُدَى. وقيل: المعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ اللهُ لهم، فيكون معنى الياءِ والنون واحداً، أي: أَوَلَمْ نُبَيِّن لهم إهلاكَنا القرونَ الكافرةَ مِن قَبْلِهم. وقال الزجَّاج: «كَمْ» في موضعِ نصبٍ بـ «أَهْلَكْنا»[(٥)].

---

(١) السبعة ص٥١٦، والتيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧ عن حمزة والكسائي ورويس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٣٨.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨ عن السلمي وقتادة، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٨ عن علي وابن عباس والسلمي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢١١.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يَحتمِل الضميرُ في «يَمْشُون» أن يعود على الماشين في مساكن المُهْلَكين، أي: وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون. ويَحتمِل أن يعود على المهلَكين فيكون حالاً، والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آياتِ اللهِ وعِظَاتِه فيتَّعِظُون؟!

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: أَوَلَمْ يعلموا كمالَ قُدْرَتِنا بسَوْقِنا الماءَ إلى الأرض اليابسة التي لا نباتَ فيها لِنُحْيِيَها. الزَّمَخْشريُّ[(١)]: الجُرُز: الأرضُ التي جُرِز نباتُها، أي: قُطع؛ إمَّا لعُدْمِ الماء، وإمَّا لأنه رُعيَ وأُزيل. ولا يقال للَّتي لا تُنْبِتُ كالسِّباخ: جُرُز، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾.

قال ابن عباس: هي أرضٌ باليمن. وقال مجاهد: هي أَبْيَن[(٢)]. وقال عكرمة: هي الأرضُ الظَّمْأَى. وقال الضحَّاك: هي الأرضُ الميتةُ العَطْشَى. وقال الفرَّاء[(٣)]: هي الأرض التي لا نباتَ فيها. وقال الأصمعيُّ: هي الأرضُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقال محمد بن يزيد: يَبْعُدُ أن تكون إلَّا أرضاً بعينها لدخول الألفِ واللام، إلَّا أنه يجوز على قول ما قال ابن عباس والضحاك[(٤)]. [قال أبو جعفر:] والإسنادُ عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعنَ فيه. وهذا إنَّما هو نعتٌ، والنعتُ للمعرفة يكون بالألف واللام، وهو مشتقٌّ من قولهم: رجلٌ جَرُوزٌ: إذا كان لا يُبْقي شَيئاً إلَّا أَكَلَه؛ قال الراجز:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٧ .

(٢) أخرج القولين الطبري ١٨/ ٦٤١ - ٦٤٢ ، وذكرهما النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨ . وأبين: موضع في اليمن. ينظر معجم البلدان ١/ ٨٦ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام إلا أنه يجوز على قول من قال العباس والضحاك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

خَبٌّ جَروزٌ وإذا جاعَ بَكَى ويأكل التمرَ ولا يُلقي النَّوَى[١]

وكذلك ناقةٌ جَروزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء تَجِدُه. وسيفٌ جُراز: أي: قاطِعٌ ماضٍ. وَجَرَزتِ الجرادُ الزَّرْعَ: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفرَّاء[٢] وغيره أنه يقال: أرضٌ جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بُخل ورُغب ورُهب؛ في الأربعة أربعُ لغات.

وقد روي أنَّ هذه الأرضَ لا أنهارَ فيها، وهي بعيدةٌ من البحر، وإنَّما يأتيها في كلِّ عامٍ واديان، فيزرعون ثلاثَ مراتٍ في كلِّ عام. وعن مجاهد أيضاً: أنَّها أرضُ النِّيل.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من الكلأ والحشيش ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحَبِّ والخَضِرِ والفواكه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنَّا نقدِرُ على إعادتهم؟!

و«فَنُخْرِجُ» يكون معطوفاً على «نَسُوقُ»، أو منقطعاً ممَّا قَبْلَه. «تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامهم» في موضعِ نصبٍ على النعت.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ «مَتَى» في موضع رفعٍ، ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الظَّرْف[٣]. قال قتادة: الفتح: القضاء[٤]. وقال الفرَّاء والقُتَبيُّ: يعني فتحَ مكة[٥]. وأَوْلى مِن هذا ما قاله مجاهد، قال: يعني يومَ القيامة.

---

(١) الرجز للشماخ، وهو في ديوانه ص٣٨٠ - ٣٨١ ، والأول منهما برواية: خبٌّ جبانٌ. وهو برواية المصنف في المقصور والممدود للفراء ص٦٧ ، ومقاييس اللغة ٢/ ٧٩ ، والصحاح (حطب) والنكت والعيون ٤/ ٣٦٧ ، واللسان (حثا) و(حطب). وفيه: الخب، أي: اللئيم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٤ ، وأبو الليث ٣/ ٣٣ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٣ ، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٣٤٧ .

ويُروى أنَّ المؤمنين قالوا: سيحكُم الله عزَّ وجلَّ بيننا يومَ القيامة، فيثيبُ المحسنَ ويعاقب المسيء، فقال الكفار على التَّهزّي: متى يومُ الفتح؟ أي: هذا الحُكْم. ويقال للحاكم: فاتح وفتَّاح؛ لأنَّ الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩][١] وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] وغيرها.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ على الظَّرف. وأجاز الفرَّاء الرفع[٣]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخَّرون ويُمْهَلون للتوبة، إن كان يومُ الفتحِ يومَ بدرٍ أو فتحَ مكة. ففي بدر قُتلوا، ويومَ الفتحِ هربوا، فلحقهم خالد بنُ الوليد فقتلهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: معناه: فأعرِضْ عن سَفَهِهم ولا تُجِبْهم إلَّا بما أُمرتَ به ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: انتظرْ يومَ الفتح، يومَ يحكُم الله لك عليهم[٤].

ابن عباس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن مُشْركي قريش بمكة، وأنَّ هذا منسوخٌ بالسيف في «براءة» في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥][٥]، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ أي: موعدي لك. قيل: يعني يومَ بدر. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: ينتظرون بكم حوادثَ الزمان.

وقيل: الآيةُ غيرُ منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراضُ مع الأمر بالقتال؛ كالهُدْنة وغيرها. وقيل: أَعرِضْ عنهم بعد ما بَلَّغتَ الحُجَّة، وانتَظِرْ إنهم منتظرون.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) ٢/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠.

(٥) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨١ من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس.

إن قيل: كيف ينتظرون القيامةَ وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان:

أحدهما: أن يكون المعنى: إنهم منتظرون الموتَ، وهو من أسباب القيامة، فيكون هذا مجازاً.

والآخر: أنَّ فيهم مَن يشكُّ، وفيهم مَن يؤمن بالقيامة، فيكون هذا جواباً لهذين الصِّنْفَين. والله أعلم[١].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «إنَّهم مُنْتَظَرون» بفتح الظاء[٢]. ورويتْ عن مجاهدٍ وابن مُحَيْصِن. قال الفرَّاء: لا يصحّ هذا إلَّا بإضمارٍ، مَجازُه: إنهم منتظَرون بهم. قال أبو حاتم: الصحيحُ الكسر[٣]، أي: انتظر عذابهم إنَّهم منتظِرون هلاكَك.

وقد قيل: إنَّ قراءةَ ابن السَّمَيْفَع ـ بفتح الظاء ـ معناها: وانتَظِرْ هلاكَهم، فإنَّهم أَحِقَّاءُ بأن يُنْتظَر هلاكُهم، يعني أنَّهم هالكون لا مَحالةَ، [أو] وانتظر ذلك، فإنَّ الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشرِيّ[٤]. وهو معنى قولِ الفرَّاء. والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٤٧.

(٣) ذكر قول أبي حاتم ابنُ جني في المحتسب ٢/ ١٧٥، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له.

(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

تفسير سورة السجدة (١)

وهى مكية.

قال البخارى فى « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرمُزَ الأعرج(٢) ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : كان النبى (٣)ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة :﴿الٓمٓ . تنزيل﴾ السجدة ، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ﴾ .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن لَيْث ، عن أبى الزبير، عن جابر قال : كان النبى ﷺ لاينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ . تنزيل﴾ السجدة ، و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تفرد به أحمد (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى: لاشك فيه ولا مرية أنه نزل (٦) ، ﴿ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾، بل يقولون :﴿افْتَرَاهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « سورة آلم السجدة » . (٢) فى ت : « وروى البخارى بإسناده » . (٣) فى ت : « رسول الله » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠) .

(٥) المسند (٣/ ٣٤٠) .

(٦) فى ف ، أ : « منزل » .

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ **مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** ﴾أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شىء ، المدبر لكل شىء ، القادر (١) على كل شىء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .

﴿ **أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ـ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائى ههنا حديثا فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا الأخضر بن عَجْلان ، عن ابن جُرَيْج المكى ، عن عطاء (٢) ، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدى فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم (٣) السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلقه من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائى أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جُرَيج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق (٥) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأخبار وهو أصح » (٦) ، وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** ﴾ أى : يتنزل (٧) أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى :﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [الطلاق : ١٢].

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] (٨) خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ،وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ**

(١) فى ت ، ف ، أ : « القاهر » . (٢) فى ت : « وروى مسلم والنسائى حديثا » . (٣) فى ت : « على العرش يوم » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٢) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠) .
(٦) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤١٣ ، ٤١٤) وممن أعله من الحفاظ ابن المدينى كما نقل ذلك البيهقى فى الأسماء والصفات ص (٢٧٥)، وقد رد ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى صحيحته برقم (١٨٣٣) ،والحديث يحتاج إلى بحث ، والله أعلم .
(٧) فى ت ، ف : « يتنزل » . (٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها ـ هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى قد عزّ كلّ شىء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين. فهو عزيز فى رحمته، رحيم فى عزته [وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل] (١).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾.

يقول تعالى: إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شىء. كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾، يعنى: خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أى: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعنى: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾، يعنى: العقول، ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: بهذه القوى التى رزقكموها اللّه عز وجل (٢). فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عزوجل.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض (٣) وذهبت، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أى: أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك (٤)، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ف، أ: « تعالى ». (٣) فى أ: « الأرضين ».
(٤) فى أ: « تلك الحال ».

معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة « إبراهيم » [١] ، وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا [٢] ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء [٣] . ورواه زهير بن محمد عن النبى ﷺ ، بنحوه مرسلا . وقاله ابن عباس ، رضى الله عنهما .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن أبى يحيى المقرى ، حدثنا [٤] عمرو بن شمر[٥] عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ﷺ : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن » . فقال مَلَك الموت: يامحمد ، طبْ نفساً وقَر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مَدَر ولا شَعَر ، فى بر ولا[٦] بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرفُ [٧] بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ، لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قَدرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها[٨] .

قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند [٩] مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه المَلَك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه المَلَك : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة قال : سمعت مجاهداً يقول[١٠] : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن [١١] يتوفاه . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

---

(١) عند الآية السابعة والعشرين ، وقد جاء الحديث بتمامه فى نسخة ت .
(٢) فى ت : « كما » . (٣) فى ت : « شاء » . (٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن » .
(٥) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن سمرة » ، والتصويب من البداية والنهاية والمعجم .
(٦) فى ت : « أو » . (٧) فى ف ، أ : « لأعرف » .
(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٢٠) ، والبزار فى مسنده برقم (٧٨٤) « كشف الأستار » من طريق إسماعيل بن أبان ، عن عمرو ابن شمر الجعفى ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن الحارث بن الخزرج عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، فأسنده ولم يرسله ، ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة وقال : « عمرو بن شمر متروك الحديث » .
(٩) فى ف : « فى » . (١٠) فى ت : « وقال مجاهد » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « به » .

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدى الله حقيرين ذليلين، ناكسى رؤوسهم، أى: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١)﴾ أى: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا (٢) دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾أى: إلى الدار الدنيا، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات (٣) الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]. وقال ههنا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى: من الصنفين، فدارهم النار(٤) لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا [هذا] (٥) العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى: [إنا] (٦) سنعاملكم معاملة الناسى؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شىء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى: بسبب كفركم وتكذيبكم (٧)، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وِفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

---

(١) بعدها فى ف، أ: « فارجعنا نعمل صالحاً ».
(٢) فى ت: « إذ ».
(٣) فى ت، ف: « بآيات ».
(٤) فى ت، ف: « قد ذرأتهم للنار ».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: « كفرهم وتكذيبهم ».

يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى: إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى: استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [أى][١] عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، [وقد][٢] قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال [تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى][٣]: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾، يعنى بذلك: قيام الليل.

وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكَدر، وأبى حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد [٤].

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء فى جماعة، وصلاة الغداة فى جماعة.

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى: خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً فى جزيل ثوابه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة، رضى الله عنه:

وَفينَا رَسُولُ اللّه يَتْلُو كِتَابَه ... إذَا انشقّ مَعْرُوفٌ مِنْ الصُّبْح سَاطعُ
[أرَانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... به مُوقنَاتٌ أنَّ مَا قَالَ واقع][٥]
يَبِيتُ يُجَافى جَنْبَهُ عَنْ فراشه ... إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْركين المَضَاجعُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُرَّة الهمدانى، عن ابن مسعود [٦]، عن النبى ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطَائه ولحافه، ومن بين أهله وحيه [٧] إلى صلاته، [فيقول ربنا: أيا ملائكتى، انظروا إلى عبدى، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته][٨] رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى. ورجل غزا فى سبيل الله، عز وجل، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له فى

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، ف.
(٤) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٣).
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود».
(٧) فى ت، ف، أ: «من بين بنيه وأهله». (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

الرجوع ، فرجع حتى أهرَيق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه » .

وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن أبى وائل (٢) ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله (٣) ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى(٤) جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾، حتى بلغ ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾. ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يارسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سَنَامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبى الله. فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفّ عليك هذا ».فقلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكُب الناس فى النار على وجوهم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به (٥) . وقال (٦) الترمذى: حسن صحيح . ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عُرْوَة بن النزال (٧) يحدث عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » ، وتلا هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾(٨) .

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب، عن معاذ ، عن النبى ﷺ بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب ،عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ**

(١) المسند (١/ ٤١٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣٦) .
(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٣) فى ت : « يارسول الله » . (٤) فى ت : « من » .
(٥) المسند (٥/ ٢٣١) وسنن الترمذى برقم (٢٦١٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٣) .
(٦) فى ت : « رواه » . (٧) فى أ : « الزبير » .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤) .

الْمَضَاجِعِ ﴾، قال : « قيام العبد من الليل » (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فطر بن خليفة ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جبير ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك فقال : « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾**.

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب (٢) ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم (٣) الذين كانت **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾** الآية ، فيقومون وهم قليل » (٤) .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثنى مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾** [الآية] (٦) ، كنا نجلس فى المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾**.

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧) .

وقوله : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾** أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ؛ فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن [البصرى] (٩) : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر . رواه ابن أبى حاتم .

قال البخارى : قوله : **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾** الآية : حدثنا على بن

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤ ، ٦٥) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « لتقم » .

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو يعلى فى المسند الكبير كما فى المطالب العالية (٤/ ٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها .

(٥) فى ت : « وقال البزار بإسناده عن بلال قال » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « أعمالهم كذلك » .

(٩) زيادة من أ . (١٠) فى ت : « ولا يخطر » .

عبد اللّه، حدثنا سفيان ، عن أبى الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال اللّه مثله [(١)]. قيل لسفيان : روايةً ؟ قال : فَأَىُّ شىء ؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به [(٢)] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثم قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصر ،حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ،حدثنا [(٣)] أبو صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً منْ بَله ما أطْلعتُم عليه » ، ثم قرأ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، قرأ أبو هريرة : « قُرَّات أَعْيُنٍ ». انفرد به البخارى من هذا الوجه [(٤)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق [(٥)] . ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح [(٦)] .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة [(٧)]،رضى اللّه عنه ، قال حماد: أحسبه عن النبى [(٨)] ﷺ قال :« من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ،لا تبلى ثيابه ،ولا يفنى شبابه ،فى الجنة ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

---

(١) فى ف ، أ : « تعالى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧) .
(٣) فى ف ، أ : « عن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى « رواية أبى معاوية » بعد الحديث المتقدم .
(٥) المسند (٢/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به ، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .
(٧) فى ت : « وروي مسلم عن أبى هريرة » .
(٨) فى ت : « رسول الله » .

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به [١].

وروى [٢] الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، أن أبا حازم حدثه قال: سمعت [٣] سهل بن سعد الساعدى، رضى الله عنه، يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال فى آخر حديثه: « فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ [يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا]** [٤] ﴾، إلى قوله: ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾.

وأخرجه مسلم فى صحيحه عن هارون بن معروف، وهارون بن سعيد، كلاهما عن ابن وهب، به [٥].

وقال ابن جرير: حدثنى العباس بن أبى طالب، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا سلام بن أبى مطيع، عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ، يروى عن ربه، عز وجل، قال: « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر ». لم يخرجوه [٦].

وقال [٧] مسلم أيضا فى صحيحه: حدثنا ابن أبى عمر وغيره، حدثنا سفيان، حدثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبى يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال: « سأل موسى، عليه السلام [٨] ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أى رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال فى الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله [٩]، ولك ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك. فيقول: رضيت رب. قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أرَدتُ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدى، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع [١٠] أذن، ولم يخطر على قلب بشر »، قال: ومصداقه من كتاب الله: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر، وقال: حسن صحيح، قال: ورواه بعضهم عن الشعبى، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح [١١].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦).

(٢) فى أ: « وقال ».

(٣) فى ت: « وروى مسلم أيضا عن ».

(٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) المسند (٥/٣٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥).

(٦) تفسير الطبرى (٢١/٦٧).

(٧) فى ت: « وروى ».

(٨) فى ت: « ﷺ ».

(٩) فى ف، أ: « وعشرة أمثاله معه ».

(١٠) فى ف « تستمع ».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩)، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨).

قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائنى ، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خَيْثَمَة ، عن محمد بن جُحَادة ، عن عامر[١] بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد . فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول: من أنت ؟ فتقول : أنا التى [٢] قال الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

وقال ابن لَهِيعة : حدثنى عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبَير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾، ويُخبرُون أن الله عنهم[٣] راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،عن صفوان بن عمرو،عن أبى اليمان الهوزنى ـ أو غيره ـ قال : الجنة مائة درجة ،أولّها درجة فضة وأرضها فضة،ومساكنها فضة ، [وآنيتها فضة] [٤] وترابها المسك . والثانية ذهب ،وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ،وآنيتها ذهب ،وترابها المسك .والثالثة لؤلؤ ،وأرضها لؤلؤ ،ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ،وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ،ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغِطْرِيف ،عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس [٦] ،عن النبى ﷺ ،عن الروح الأمين قال : «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ،ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] [٧] وسع الله له فى الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فَحَدَّثَ بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة؟ قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[الأحقاف : ١٦].قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله ، لم يُعلم به الناس ، فأسرّ الله له يوم القيامة قُرّة أعين [٨] .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن عباس » .
(٢) فى أ : « أنا من الذين » .
(٣) فى ت : « عليهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ ، والطبرى .
(٥) تفسير الطبرى (٢١/٦٦) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لايساوى فى حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقا ، أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى :﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى مُعَيط ؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ،﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ،﴿ نُزُلاً﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ، ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كقوله : ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفُضَيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

وقوله :﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] (٤) ﴾ قال (٥) ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجَزَرى ، وخَصِيف .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ :يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

(١) زيادة من أ .

(٢) فى ت ، ف : « لرسل الله » .

(٣) فى ت : « قلوبهم بلقاء الله ومقتضاها » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة (١) ، عن عبد الله : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال : سنون أصابتهم (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى عبيد الله بن عُمَر القواريرى ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَة (٣) ، عن الحسن العُرَنى ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبى ليلى(٤) ، عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات (٥) والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام (٦) .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه (٧) . وعند البخارى عن ابن مسعود ، نحوه(٨).

وقال عبد الله بن مسعود (٩) أيضا ، فى رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّى وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غَرموا (١٠) ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أى : لا أظلم ممن ذكَّره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه الله : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العوَز (١١) ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكلاَعى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن جنادة بن أبى أمية (١٢) ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد (١٣) لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ »(١٤) .

---

(١) فى ت : « وروى النسائى بإسناده » .
(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .
(٣) فى ف ، أ : « عررة ». (٤) فى ت : « وروى عبد الله بن الإمام أحمد » .
(٥) فى ت ، أ : « المضمار » .
(٦) زوائد المسند (٥/١٢٨) .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضي خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .
(٩) فى ت : « وعن ابن مسعود » . (١٠) فى ت : « هزموا » . (١١) فى ت ، أ : « وأعور أشد العورة » .
(١٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » . (١٣) فى ت : « اعتقد » ، وفى أ : « أعقد » .
(١٤) تفسير الطبرى (٢١/٦٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾: قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء (١) . ثم روى عن أبى العالية الرِّياحى قال : حدثنى ابن عم نبيكم ـ يعنى ابن عباس ـ قال : قال رسول ﷺ : « أريتُ ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلا آدم طُوَالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه »، ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحُلْوانى ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جُعل موسى هُدى لبنى إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل (٣) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلا ﴾ [الإسراء: ٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحَرّفوا وأوّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً (٤) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا (٥) ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وَكيع : قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز .

---

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخريجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي ـ أو : عمي على أبي ـ سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ولهذا قال تعالى]⁽¹⁾ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ] ⁽²⁾ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها، ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢]، وقال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل ⁽³⁾ متظاهرة.

﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهي [الأرض] ⁽⁴⁾ التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٨]، أي : يبساً لا تنبت شيئاً .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) في ت ، أ : « دلالات » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله: ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هى] (١) المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبُتَ الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء .

قال ابن لَهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عمن حدثه قال : لما فُتحت مصر ، أتى أهلُها عمرو بن العاص ـ [وكان أميرًا بها] (٢) ـ حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بكْر بين (٣) أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون فى الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا ، فألقها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد. . . فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السُنَّة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبرى فى كتاب « السنة » له (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ ،كما قال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . [مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ] (٥) ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾.

وقال ابن أبى نَجيح ، عن رجل ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هى التى لا تُمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا ، إلا ما يأتيها من السيول .

وعن ابن عباس ، ومجاهد : هى أرض باليمن .

وقال الحسن ، رحمه الله : هى قرى فيما بين اليمن والشام .

وقال عِكرِمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسُّدِّىّ ، وابن زيد : الأرض الجرز : التى لا نبات فيها

---

(١) زيادة من ت ، أ .   (٢) زيادة من ت .   (٣) فى أ : « من » .

(٤) كتاب السنة للالكائى برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء » : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن صالح ، عن ابن لهيعة به ، وهو مرسل .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس اللّه بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعادا وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدَال علينا ، ويُنتقَم لك منا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال اللّه تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حَل بكم بأس اللّه وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفى الأخرى ، ﴿ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ ـ ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النَّجْعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ اللّه ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن اللّه سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر ،وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة اللّه ، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب اللّه لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل،[واللّه أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة « الم السجدة »] (٢)

(١) زيادة من ف . (٢) زيادة من ت .

/ سورة السجدة [٣٢٨و]

مكّيّة، وهي ثلاثون آيةً، وقيل: تسع وعشرون.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ إمّا اسم للسورة فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿الٓمٓ﴾، والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفتَ سرَّها، وإمّا مسرود على نمط التعديد، فلا محلّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبرٌ بعد خبرٍ، على أنّه مصدر أُطلقَ على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: خبر لـ﴿الٓمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيل الكتاب، وقد مرّ مرارًا أنّ ما يُجعل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية قبلُ فحقّها الإخبارُ بها.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث على الوجه الأوّل، وثانٍ على الأخيرين. وقيل: خبر لـ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلّق بمضمَر هو حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنًا منه تعالى، لا بـ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنّ المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، والأوجَه حينئذ[٢] أنّه الخبر، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو اعتراض، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، كأنّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزّلًا مِن ربّ العالمين.

---

[١] ط س + آية.

[٢] وفي هامش م: أي: على تقدير كون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأً. «منه».

ويؤيّده قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنّ قولهم هذا إنكار منهم لكونه مِن ربّ العالمين، فلا بدّ أن يكون مَورده حكمًا مقصودَ الإفادة، لا قيدًا للحكم بنفي الريب عنه، وقد رُدّ عليهم ذلك وأُبطِل حيث جيء بـ"أَم" المنقطعة إنكارًا له، وتعجيبًا منه لغاية ظهور بطلانه، واستحالةِ كونه مُفترًى.

ثم أُضربَ عنه إلى بيان حقّيّة ما أنكروه حيث قيل: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام بعد إضافته فيما سبق إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] تشريفًا له عليه السلام، ثمّ أُيّدَ ذلك ببيان غايته حيث قيل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فإنّ بيان غاية الشيء وحكمتِه -لا سيّما عند كونها غايةً / حميدةً مستتبِعةً لمنافعَ جليلة في وقت شدّة الحاجة [٣٢٨ظ] إليها- ممّا يقرّر وجود الشيء ويؤكِّده لا محالةَ.

ولقد كانت قريش أضلّ الناس وأحوجَهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيلِ الكتاب، حيث لم يُبعَث إليهم مِن رسول قبله عليه السلام، أي: ما أتاهم مِن نذير مِن قبل إنذارك، أو مِن قبل زمانك. والترجّي معتبَر مِن جهته عليه السلام، أي: لتنذرهم راجيًا لاهتدائهم، أو لرجاء اهتدائهم.

واعلم أنّ ما ذُكر مِن التأييد إنّما يتسنّى على ما ذُكر مِن كون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] مبتدأً، وأمّا على سائر الوجوه فلا تأييدَ أصلًا؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] خبر رابع على الوجه الأوّل،[4] وخبرٌ ثالث على الوجهين الأخيرين،[5] وأيًا ما كان فكونه مِن ربّ العالمين حكمٌ مقصودُ الإفادة، لا قيدٌ لحكمٍ آخَر، فتدبّر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش م: هو كون ﴿الٓمٓ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف. «منه».

٥ وفي هامش م: هما كون ﴿الٓمٓ﴾ مَسرودًا على نمط التعديد، وكونُه مبتدأ. «منه».

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مرّ بيانه فيما سلَف. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما لكم إذا جاوَزتم رضاه تعالى أحدٌ ينصركم ويشفع لكم ويجيركم مِن بأسِه، أو ما لكم سواه وليّ ولا شفيع؛ بل هو الذي يتولّى مصالحَكم وينصركم في مواطن النصر، على أنّ "الشفيع" عبارة عن الناصر مجازًا، فإذا خذَلكم لم يبقَ لكم وليّ ولا نصير.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألَا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكّرون بها؟ أو أتَسمعونها فلا تتذكّرون بها؟ فالإنكار على الأوّل متوجِّه إلى عدم السماع وعدمِ التذكّر معًا، وعلى الثاني على عدم التذكّر مع تحقّق ما يوجبه مِن السماع.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: يدبّر أمر الدنيا بأسباب سماويّة مِن الملائكة وغيرها نازلةً آثارها وأحكامها إلى الأرض، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يثبت في علمه موجودًا بالفعل ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: في بُرهة مِن الزمان متطاولة. والمراد بيان طول امتداد / ما بين تدبير الحوادث وحدوثها [٣٢٩و]
مِن الزمان.

وقيل: يدبّر أمر الحوادث اليوميّة بإثباتها في اللوح المحفوظ، فيَنزل بها الملائكة ثمّ يَعرج إليه في زمان هو كألفِ سنة ممّا تعدّون، فإنّ ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عامٍ.

وقيل: يقضي قضاء ألف سنةٍ، فينزل به الملَك ثمّ يعرج بعد الألفِ لألفٍ آخر.

وقيل: يدبّر أمر الدنيا جميعًا إلى قيام الساعة، ثمّ يَعرج إليه الأمر كلّه عند قيامها.

وقيل:[1] يدبّر المأمور به مِن الطاعات منزّلًا مِن السماء إلى الأرض بالوحي، ثمّ لا يعرج إليه خالصًا إلّا في مدّة متطاولة لقِلّة المخلِصين والأعمال الخُلَّص.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٢٠.

وأنت خبير بأنّ قِلّة الأعمال الخالصة لا يقتضي بُطْء عروجها إلى السماء؛ بل قِلّته. وقُرئ: "يَعُدُّونَ" بـ"الياء".[١]

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الله عزّ وجلّ باعتبار اتّصافه بما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض، والاستواءِ على العرش، وانحصارِ الولاية والنصرة فيه، وتدبيرِ أمر الكائنات على ما ذُكر مِن الوجه البديع. وهو مبتدأ خبرُه ما بعده، أي: ذلك العظيم الشأنِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبّر أمرَهما حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على عباده، وهما خبران آخَران. وفيه إيماءٌ إلى أنّه تعالى متفضِّل في جميع ما ذُكر، فاعلٌ بالإحسان.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خبر آخر، أو نصب على المدح، أي: حسّن كلّ مخلوق خلقَه؛ إذ ما مِن مخلوق خلقه إلّا وهو مرتَّب على ما يقتضيه الحكمة، وأوجبَته المصلحة، فجميع المخلوقات حسَنة وإن تفاوتت إلى حسَنٍ وأحسنَ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥/٤].

[٣٢٩ظ] / وقيل: عَلِم كيف يخلقه، مِن قوله: "قيمة المرء ما يُحسِن"،[٢] أي: يُحسن معرفتَه ويعرفه معرفةً حسنةً بتحقِيق وإتقان.

وقُرئ: "خَلْقَهُ"[٣] على أنّه بدل اشتمالٍ مِن ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾، والضمير للمبدَل منه، أي: حسّن خلق كلّ شيء. وقيل: بدل الكلّ على أنّ الضمير لله تعالى، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، أي: حسّن كلَّ مخلوقاته. وقيل: هو مفعول ثانٍ لِـ﴿أَحْسَنَ﴾ على تضمينه معنى "أعطى"، أي: أعطى كلَّ شيء خلْقَه اللائقَ به بطريق الإحسان والتفضّل.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٢ مِن قول عليّ رضي الله عنه. فتوح الغيب للطيبي، ١٢/٣٣٧.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

وقيل: هو مفعوله الأوّل، و﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعوله الثاني، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، وضميرُه لله سبحانه، على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف، والمعنى: ألهَمَ خلقَه كلَّ شيء ممّا يحتاجون إليه.

وقال أبو البقاء: «عرّف مخلوقاتِه كلَّ شيء يحتاجون إليه»،[1] فيئول إلى معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه، ٥٠/٢٠].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ مِن بين جميع المخلوقات ﴿مِن طِينٍ﴾ على وجه بديع يَحارُ العقول في فهمه حيث بَرَأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائرِ أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لخروج كلّ فرد منها مِن القوّة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قُربًا وبُعدًا، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾... إلخ، أي: ذرّيّته، سمّيت بذلك لأنّها تَنسِل وتنفصل منه. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هو المنيّ المُمتهَن.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: عدّلَه بتكميل أعضائه في الرحِم وتصويرِها على ما ينبغي، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافه إليه تعالى تشريفًا له وإيذانًا بأنّه خَلق عجيب وصُنع بديع، وأنّ له شأنًا له مناسَبة إلى حضرة[2] الربوبيّة، وأنّ أقصى ما ينتهي إليه العقول البشريّة مِن معرفته هذا القدرُ الذي يُعبَّر عنه تارةً بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء، ٨٥/١٧].

/ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الجَعل إبداعي، و"اللام" متعلّقة [٣٣٠و] به، والتقديم على المفعول الصريح لِما مرّ مرّات مِن الاهتمام بالمقدَّم والتّشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمه بجَزالة النظم الكريم، أي: خلقَ لمنفعتكم تلك المشاعرَ لتعرفوا أنّها -مع كونها في أنفسها نِعمًا جليلةً

---

[1] التبيان لأبي البقاء، ١٠٤٨/٢.

[2] ط س: الحضرة.

لا يقادَر قدرُها-وسائلُ إلى التمتّع بسائر النِّعم الدينيّة والدنيويّة الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تَصرفوا كلًّا منها إلى ما خُلق هو له، فتُدركوا بسَمعكم الآياتِ التنزيليّةَ الناطقة بالتوحيد والبعث، وبأبصاركم الآياتِ التكوينيّةَ الشاهدة بهما، وتستدلّوا بأفئدتكم على حقّيّتهما.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النِّعم بطريق الاعتراض التذييلي، على أنّ القِلّة بمعنى النفي، كما ينبئ عنه ما بعده، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون.

وفي حكاية أحوال الإنسان مِن مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكايةِ أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيّته له مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءَه.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٠﴾

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ما ذُكر مِن عدم شكرهم بتلك النِّعم موجِب للإعراض عنهم وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا ترابًا مخلوطًا بترابها بحيث لا نتميّز منه، أو غِبنا فيها بالدفن. وقُرئ: "ضَلِلْنَا" بكسر "اللام"،[1] مِن باب "عَلِمَ"، و"صَلَلْنَا" بـ"الصاد" المهملة،[2] مِن "صَلَّ اللحمُ" إذا أنتَن. وقيل: مِن "الصَّلّة"، وهي الأرض، أي: صِرنا مِن جنس الصَّلّة.

قيل: القائل أبيّ بن خلف، ولِرضاهم بقوله أُسندَ القول إلى الكلّ.

[٣٣٠ظ] والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه / قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو "نُبعَثُ" أو "يُجَدّد خَلقُنا". و"الهمزة" لتذكير الإنكارِ السابق وتأكيدِه. وقُرئ: "إنّا"[3] على الخبر. وأيًّا ما كان فالمعنى على تأكيد الإنكار، لا إنكارِ التأكيد

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وطلحة وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٣ قرأ بها نافع والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٣.

كما هو المتبادر مِن تقدّم "الهمزة" على "إنّ"، فإنّها مؤخّرة عنها في الاعتبار، وإنّما تقديمُها عليها لاقتضائها الصدارة.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنَع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقَونه فيها مِن الأحوال والأهوال جميعًا.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ بيانًا للحقّ وردًّا على زعمهم الباطل: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لا كما تزعمون أنّ الموت مِن الأحوال الطبيعيّة العارضة للحيوان بموجَب الجِبِلّة، أي: يقبض أرواحكم بحيث لا يدَع فيكم شيئًا، أو لا يترك منكم أحدًا، على أشدّ ما يكون مِن الوجوه وأفظعِها، مِن ضرب وجوهكم وأدباركم.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض أرواحكم، وإحصاءِ آجالكم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ،[1] أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم،[2] ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن الحياء والخِزي عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا. ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: صِرنا ممَّن يُبصر ويَسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصَرة والآيات المسموعة، وكنّا مِن قبلُ عُميًا وصمًّا لا ندرك شيئًا، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه تلك الآيات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ادّعاء منهم لصحّة الأفئدة، والاقتدارِ على فهم معاني الآيات، والعملِ بموجَبها، كما أنّ ما قبله ادّعاء لصِحّة مَشعَرَي البصر والسمع،

---

[1] السجدة، ١٠/٣٢.

[2] م ط س - أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم ["صح" في هامش م].

كأنّهم قالوا: وأيقَنّا وكنّا مِن قبلُ لا نَعقِل شيئًا أصلًا، وإنّما عدلوا إلى الجملة
الاسميّة المؤكّدة / إظهارًا لِثباتهم على الإيقان، وكمالِ رغبتهم فيه، وكلّ ذلك [٣٣١و]
للجِدّ في الاستدعاء طمعًا في الإجابة إلى ما سألوه مِن الرجعة، وأنّى لهم ذلك.

ويجوز أن يقدَّر لكلّ مِن الفعلين مفعول مناسب له ممّا يبصرونه ويسمعونه، فإنّهم حينئذٍ يشاهدون الكفر والمعاصي على صوَر منكَرة هائلة، ويخبرهم الملائكة بأنّ مصيرهم إلى النار لا محالةَ، فالمعنى: أبصَرنا قُبح أعمالنا، وكنّا نراها في الدنيا حسنةً، وسمعنا أنّ مردّنا إلى النار، وهو الأنسب لِما بعده مِن الوعد بالعمل الصالح.

هذا، وقد قيل: المعنى: وسمعنا منك تصديق رسلك. وأنت خبير بأنّ تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به مِن الوعد والوعيد، لا بالإخبار بأنّهم صادقون حتّى يسمعوه. وقيل: وسمعنا قولَ الرسل، أي: سمِعناه سمعَ طاعة وإذعان.

ولا يُقدَّر لـ﴿تَرَىٰ﴾ مفعول، إذ المعنى: لو تكون منك رؤية في ذلك الوقت، أو يُقدَّر ما ينبئ عنه صِلةُ ﴿إِذِ﴾. والمضيّ فيها وفي ﴿لَوْ﴾ باعتبار أنّ الثابت في علم الله تعالى بمنزلة الواقع. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا فظيعًا لا يُقادَر قدرُه. والخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح له كائنًا مَن كان؛ إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغِها مِن الفظاعة إلى حيث لا يختصّ استغرابها واستفظاعُها بِراءٍ دون راءٍ ممَّن اعتاد مشاهدةَ الأمور البديعة، والدواهي الفظيعة؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية يتعجّب مِن هولها وفظاعتها.

هذا، ومَن علّل عموم الخطاب[1] بالقصد إلى بيان أنّ حالَهم قد بلغت مِن الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتّة، فلا تختصّ رؤية راءٍ دون راءٍ؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب؛ فقد نأى عن تحقيق الحقّ؛ لأنّ المقصود بيان كمال فظاعة حالهم، كما يفصح عنه الجواب المحذوف، لا بيانُ كمال ظهورها، فإنّه مَسوق مَساق المسلَّمات، فتدبّر.

---

[1] وفي هامش م: وهو صاحب المفتاح. | السكّاكي في مفتاح العلوم، ١/١٨٠.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقدَّر بقولٍ معطوف على ما قُدِّر قبلَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾... إلخ،[١] أي: ونقول: لو شئنا، أي: لو تعلّقت مشيئتنا تعلّقًا فعليًا بأن نعطي كلَّ نفسٍ مِن النفوس البَرّة[٢] والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إيّاه في الدنيا التي هي دار الكسب، وما أخّرناه إلى دار الجزاء.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: سبقَت كلمتي حيث قلت لإبليس / عند [٣٣١ظ] قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٢-٨٣]: ﴿فَالْحَقُّ[٣] وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٤-٨٥]، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كما يلوّح به تقديم ﴿الْجِنَّةِ﴾ على ﴿النَّاسِ﴾، فبموجَب ذلك القول لم نَشأْ إعطاءَ الهدى على العموم؛ بل منَعْناه مِن أتباع إبليس الذين أنتم مِن جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغيّ بإغوائه، ومشيئتُنا لأفعال العباد مَنوطة باختيارهم إيّاها، فلمّا لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأْ إعطاءَه لكم، وإنّما أعطيناه الذين اختاروه مِن النفوس البَرّة، وهم المَعنيّون بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الآيةَ،[٤] فيكون مناطُ عدمِ مشيئته إعطاءَ الهدى في الحقيقة سوءَ اختيارهم، لا تحققَ القولِ.

وإنّما قيّدنا المشيئة بما مرّ مِن التعلّق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها، لأنّ المشيئة الأزليّة مِن حيث تعلّقُها بما سيكون مِن أفعالهم إجمالًا متقدّمةٌ على تحقّق كلمة العذاب، فلا يكون عدمُها مَنوطًا بتحقّقِها، وإنّما مناطه علمه تعالى أزلًا بِصَرف اختيارِهم فيما سيأتي إلى الغيّ، وإيثارِهم له على الهدى، فلو أُريدت هي مِن تلك الحيثيّة لاستُدرِك بعدمها، ونيط ذلك بما ذُكر مِن المَناط،

---

١ السجدة، ٣٢/١٢.
٢ س: البرّه.
٣ وفي هامش م: مقول لقوله: "حيث قلتُ".
٤ السجدة، ٣٢/١٥.

على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨]. فمَن توهّم[١] أنّ المعنى: ولو شئنا لأعطينا كلّ نفس ما عندنا مِن اللطف الذي لو كان منهم اختياره لَاهتدَوا، ولكن لم نعطهم لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفر وإيثارَه، فقد اشتبه عليه الشئون.[٢]

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يُعرِب عنه ما قبله مِن نفي الرجع إلى الدنيا، أو على الوعيد المحكي. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ للإيذان بأنّ تعذيبهم ليس لمجرّد سبق الوعيد به فقط؛ بل هو وسَبْقُ الوعيد أيضًا بسببٍ موجِب له مِن قِبَلهم، كأنّه قيل: لا رَجْعَ لكم إلى الدنيا، أو حقّ وعيدي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاءَ هذا اليوم الهائل، وتركِكم التفكّرَ فيه والاستعدادَ له بالكلّيّة. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في العذاب تركَ المنسيّ بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديدِ، [٣٣٢و] وتعيينِ المفعول المطويّ للذّوق، والإشعارِ / بأنّ سببه ليس مجرّد ما ذُكِر مِن النسيان؛ بل له أسباب أُخَر مِن فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرّين عليها في الدنيا. وعدم نظم الكلّ في سِلك واحدٍ للتنبيه على استقلال كلّ منها في استيجاب العذاب. وفي إبهام المَذوق أوّلًا وبيانِه ثانيًا بتكرير الأمر وتوسيطِ الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما مِن الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استئناف مَسوق لتقرير عدم استحقاقهم

---

[١] يعني النسفي في مدارك التنزيل، ٨/٣.

[٢] وفي هامش م: وكذا مَن قال: «المعنى: لو علمناها أهلًا للهدى لهديناها». «منه». | نقله الطيبي عن بعضهم في فتوح الغيب، ٣٤٢/١٢.

لإيتاءِ الهدى والإشعارِ بعدم إيمانهم لو أُوتوه بتعيين مَن يستحقّه بطريق القصر، كأنّه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا، ولا تعملون بموجَبها عملًا صالحًا، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدّعون حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦]، وإنّما يؤمن بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي: وُعِظوا ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ آثِرَ ذي أثِيرٍ مِن غير تردّدٍ ولا تَلَعثُمٍ، فضلًا عن التسويف إلى معاينةِ ما نطقَت به مِن الوعد والوعيد، أي: سقطوا على وجوههم، ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ونزّهوه عند ذلك عن كلّ ما لا يليق به مِن الأمور التي مِن جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي أجلُّها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيقُ للاهتداء بها.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد، وبأنّهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيّته تعالى لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم خاضعون له تعالى، لا يستكبرون عمّا فعلوا مِن الخرور والتسبيح والتحميد.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي: تنبو وتتنحّى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: الفُرُشِ ومواضعِ المنام. والجملة مستأنفة لبيان بقيّة محاسنهم، وهم المتهجّدون بالليل.

قال أنس رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشِرَ الأنصار، / كنّا نصلّي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتّى نصلّي العشاء مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[1] [٣٣٢ظ]

وعن أنس أيضًا أنّه قال: «نزلت في أناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كانوا يصلّون مِن صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وهي صلاة الأوّابين».[2]

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣١/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٣/٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٣. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ٤٨٧/٢.

وهو قول أبي حازم،[١] ومحمّد بن المنكدر،[٢] وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما.[٤]

وقال عطاء: «هم الذين لا ينامون حتّى يصلّوا العشاء الآخرة والفجرَ في جماعة».[٥]

والمشهور أنّ المراد منه صلاة الليل،[٦] وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة،[٧] لقوله صلّى الله عليه وسلّم:[٨] «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل».[٩]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تفسيرها: «قيام العبد مِن الليل».[١٠]

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين جاءَ منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمِعُ الخلائق كلّهم: "سيعلم أهلُ الجمع مَن أولى بالكرَم"، ثمّ يرجع فينادي: "لِيَقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع"، فيقومون وهم قليل،

---

١ هو سلمة بن دينار المَديني المخزومي، أبو حازم (ت. ١٤٠هـ/٧٥٧م)، الإمام، القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبويّة، القاصّ، الزاهد. وُلد في أيّام ابن الزبير وابن عمر. وروى عن سهل بن سعد وأبي أمامة بن سهل وسعيد بن المسيّب، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه، فقال: «إن كانت له حاجة فليأتِ، وأمّا أنا فما لي إليه حاجة». قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ما رأيت أحدًا الحكمةُ أقرب إلى فيه مِن أبي حازم» أخباره كثيرة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩٦/٦؛ والأعلام للزركلي، ١١٣/٣.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٥. | هو محمّد بن المنكَدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد العزّى القرشي التيمي المدني، أبو عبد الله (ت. ١٣٠هـ/٧٤٨م)، الإمام، الحافظ، القدوة، شيخ الإسلام. روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عمر وجابر وابن عبّاس وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم. قال سفيان الثوري: «كان مِن معادن الصدق، ويجتمع إليه الصالحون، ولم ندرك أحدًا أجدَر أن يَقبل الناس منه إذا قال: "قال رسول الله" منه». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ١١٢/٧.

٣ س - تعالى.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٣/٦؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٥٤٦/٦.

٥ معالم التنزيل للبغوي، ٣٠٤/٦؛ اللباب لابن عادل، ٤٨٥/١٥. وانظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣١/٧.

٦ وفي هامش م: أي: التهجّد. «منه».

٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٦١٢/١٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠٤/٦.

٨ س: عليه السلام.

٩ صحيح مسلم، ٨٢١/٢ (١١٦٣)؛ سنن أبي داود، ٩٦/٤ (٢٤٢٩).

١٠ جامع البيان للطبري، ٦١٥/١٨؛ مسند أحمد، ٣٥٢/٣٦ (٢٢٠٢٢).

ثـمّ يرجع فيقـول: "لِيَقـم الذين يحمدون الله[١] في البأساء والضرّاء"، فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعًا إلى الجنّة، ثمّ يحاسَب سائر الناس».[٢]

وقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿جُنُوبُهُمۡ﴾، أي: داعين له تعالى على الاستمرار ﴿خَوۡفٗا﴾ مِن سخطه وعذابه وعدمِ قبول عبادته، ﴿وَطَمَعٗا﴾ في رحمته، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ مِن المال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في وجوه البرّ والحسنات.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ مِن النفوس، لا ملَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسَل، فضلًا عمّن عداهم ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ أي: لأولئك الذين عُدّدت نُعوتهم الجليلة ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ ممّا تَقَرُّ به أعينُهم. وعنه عليه السلام: «يقول الله عزّ وجلّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشَر، بَلْهَ ما اطّلعتم عليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾».[٣]

/ وقُرئ: "مَا أُخْفِي لَهُمْ"،[٤] و"مَا نُخْفِي لَهُمْ"،[٥] و"مَا أَخْفَيْتُ لَهُمْ"[٦] على صيغة المتكلّم، و"مَا أَخْفَى لَهُمْ"[٧] على البناء[٨] للفاعل، وهو الله سبحانه. وقُرئ: "قُرَّاتِ أَعْيُنٍ"[٩] لاختلاف أنواعها. و"العِلم" بمعنى المعرفة، و﴿مَا﴾ موصولة، أو استفهاميّة عُلّق عنها الفعل. [٣٣٣و]

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جُزُوا جزاءً، أو أُخفِي لهم للجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا مِن الأعمال الصالحة. قيل: هؤلاء القوم أخفَوا أعمالهم، فأخفى الله تعالى ثوابهم.

---

١ س – الله.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٢/٧. وبنحوه في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٣٩/٤ (٢٩٧٥).

٣ صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٤١/٤ (٢٨٢٤).

٤ أي: بإسكان "الياء". قرأ بها يعقوب وحمزة. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن كعب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

٨ س + على.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة رضي الله عنهم وعوف العقيلي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أبعدَ ظهور ما بينهما مِن التباين البيّن يُتوهّم كونُ المؤمِن الذي حُكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه. ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ التصريحُ به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرّة على أبلغ وجهٍ وآكدِه لبناء التفصيل الآتي عليه. والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين في الآخرة بعد ذكر أحوالهما في الدنيا. وأضيفت "الجنّة" إلى "المَأوى" لأنّها المأوى الحقيقي، وإنّما الدنيا منزل مرتحَل عنه لا محالةَ. وقيل: ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ جنّة مِن الجنّات. وأيًّا ما كان فلا يَبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذُكر مِن تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

﴿نُزُلًۢا﴾ أي: ثوابًا، وهو في الأصل ما يُعدّ للنازل مِن الطعام والشراب. وانتصابه على الحاليّة. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، أو بأعمالهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي: خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: ملجأهم ومنزلهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ مكانَ جنّات المأوى للمؤمنين، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ استئناف لبيان كيفيّة كون النارِ مأواهم.

[٣٣٣ظ] يُروى أنّه يضربهم لهَب النار / فيرتفعون إلى طبقاتها حتّى إذا قَرُبُوا مِن بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهَب فيَهْوُون إلى قَعرها، وهكذا يُفعَل بهم أبدًا.[١]

---

[١] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣ (الحج، ٢٢/٢٢)؛ واللباب لابن عادل، ٥١/١٤ (الحج، ٢٢/٢٢).

وكلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على أنّهم مستقِرّون فيها، وإنّما الإعادة مِن بعضِ طبقاتها إلى بعضٍ.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ تشديدًا عليهم وزيادةً في غيظهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذابِ الدنيا، وهو ما مُحِنوا به مِن السنة سبعَ سنين والقتلِ والأسرِ، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الذي هو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ الذين يشاهدونه وهم في الحياة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

رُوي أنّ الوليد بن عتبة[1] فاخَر عليًّا رضي الله عنه يوم بدر، فنزلت هذه الآيات:[2] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بيان إجمالي لحال مَن قابلَ آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال مَن قابَلَها بالسجود والتسبيح والتحميد. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلًا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين، كما في بيت الحماسة:[3]

---

[1] وفي هامش م: هو ابن أبي مُعيط. | كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "ابن عقبة". وهو الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي (ت. بعد ١٠١هـ/٧٢٠م). هو أخو أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لأمّه، بن مُسلِمة الفتح؛ بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صدقات بني المصطلِق، وبعثه عمر على صدقات بني تغلب، وولي الكوفة لعثمان رضي الله عنه، وجاهد بالشام، ثمّ اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان، وكان سخيًّا، شاعرًا. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤١٢/٣؛ والأعلام للزركلي، ١١٢/٦.

[2] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٢/٤. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٣/٧: «كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد لعليّ: "اسكت، فإنّك صبيّ، وأنا واللهِ أبسطُ منك لسانًا، وأحدّ منك سِنانًا، وأشجع جَنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة"، فقال له عليّ: "اسكت، فإنّك فاسق"، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الآية».

[3] لجعفر بن علبة الحارثي الحماسي، أي: لا يكشف الشدّة، ويزيلها إلّا رجل كريم يرى قُحَم الموت، ويتحقّق غمرات الممارسة حتى كأنّه يشاهدها، ثمّ يتوسّطها، ولا يعدل عنها. و"الغمّاء": الغمّ والكربة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦/٨. وانظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ٣٩.

لا يكشفُ الغمّاءَ إلّا ابنُ حُرّةٍ يرى غمَراتِ الموت ثمّ يزورها[١]

أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سبك التركيب على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المُساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مِن كلّ مَن اتّصف بالإجرام وإن هانَت جريمته ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممّن هو أظلم مِن كلّ ظالم، وأشدُّ جُرمًا مِن كلّ مُجرم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، عُبّر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانَسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أنّ إيتاءَه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كإيتائها لموسى عليه السلام.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مِن لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل، ٢٧/٦]، والمعنى: إنّا آتينا موسى مثلَ ما آتيناك مِن الكتاب، ولقّيناهُ مثل ما لقّيناك مِن الوحي، فلا تكن في شكّ مِن أنّك لُقّيتَ مثلَه ونظيرَه.

[٣٣٤و] وقيل: مِن لقاء موسى الكتابَ، أو مِن لقائك موسى عليه السلام، / وعنه عليه السلام: «رأيت ليلةَ أسري بي موسى عليه السلام رجلًا آدم طوالًا جَعدًا، كأنّه مِن رجال شَنُوءة».[٢]

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل: لم يُتعبّد بما في التوراة وَلَدُ إسماعيل.

---

[١] وفي هامش م: المِصراع مَخروم؛ أُسقِط عن أوّله "الواو"، كما في قول خُبَيب رضي الله عنه:
لستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلمًا
على أيّ شِقٍّ كان لله مصرعي
أي: ولست. «منه». | "الخَرْم" في الشعر: ذهاب "الفاءِ" مِن "فَعُولُن"، أو "الميمِ" مِن "مُفاعَلَتُن". القاموس المحيط للفيروزابادي، «خرم». والبيت في مسند أحمد، ٤٦١/١٣ (٨٠٩٦)؛ وصحيح البخاري، ١٢٠/٩ (٧٤٠٢)، بلفظ: "ولست أبالي".

[٢] صحيح البخاري، ١١٦/٤ (٣٢٣٩)؛ صحيح مسلم، ١٥١/١ (١٦٥). | شَنوءة بطن مِن الأزد، مِن القحطانيّة، وهم بنو نَصر بن الأزد، وبنو شَنوءة هذا هم الذين يقال لهم: "أزد شنوءة". نهاية الأرب للقلقشندي، ٣٠٨/١.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ بقيّتهم بما في تضاعيف الكتاب مِن الحِكم والأحكام إلى طريق الحقّ، أو يهدونهم إلى ما فيه مِن دين الله وشرائعه، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم بذلك، أو بتوفيقنا له، ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ هي "لمّا" التي فيها معنى الجزاء، نحو: "أحسنتُ إليك لمّا جئتني". والضمير للأئمّة، تقديره: لمّا صبروا جعلناهم أئمّةً، أو هي ظرف بمعنى الحين، أي: جعلناهم أئمّة حين صبروا، والمراد صبرهم على مشاقّ الطاعات، ومُقاساةِ الشدائد في نصرة الدين، أو صبرُهم عن الدنيا. وقُرئ: "لِمَا صَبَرُوا"،[١] أي: لِصبرهم.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب ﴿يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلنّ الكتاب الذي آتيناكَهُ هُدًى لأمّتك، ولنجعلنّ منهم أئمّةً يهدون مثلَ تلك الهداية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيميّز بين المُحقّ والمُبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على منويّ يقتضيه المقام. وفعل الهداية إمّا مِن قَبيل: "فلان يُعطي" في أنّ المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول، وإمّا بمعنى التبيين، والمفعولُ محذوف، والفاعل ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: أَغفَلوا ولم يَفعَلِ الهدايةَ لهم -أو ولَم يُبيِّنْ لهم مَآلَ أمرهم- كثرةُ إهلاكنا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ مثلِ عادٍ وثمود وقومِ لوط.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

وقُرئ: "نَهْدِ لَهُمْ" بنونِ العظَمة،[١] وقد جُوّز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى أيضًا ضميرَه تعالى، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ استئنافًا مُبيّنًا لكيفيّة هدايته تعالى.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: يمرّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم. والجملة حال مِن ضمير ﴿لَهُمْ﴾. وقُرئ: "يُمَشُّونَ"[٢] للتكثير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية، أو في مساكنهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها. / ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذه الآيات سماعَ تدبّر واتّعاظ. [٣٣٤ظ]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِز نباتُها، أي: قُطعَ وأُزيلَ بالمرّة. وقيل: هو اسم موضعٍ باليمن. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ مِن تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتِّبن والقَصِيل وَالوَرَقِ وبعضِ الحبوب المخصوصة بها. وقُرئ: "يَأْكُلُ" بـ"الياء".[٣]

﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يَقْتاتُها الإنسان والثمارِ. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلّوا به على كمال قدرته تعالى وفضلِه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكّة إذا سَمِعُوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبًا واستهزاءً:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٩٦/٧ (طه، ١٢٨/٢٠).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن حمزة وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصر، أو الفصلُ بالحكومة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الله تعالى ينصركم، أو يفصل بيننا وبينكم؟

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ "يومُ الفتح": يوم القيامة، وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويومُ نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن رحمهما الله: «يومُ فتحِ مكّة».[1]

والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنّه ليس ممّا ينبغي أن يُسأَل عنه، لكونه أمرًا بيّنًا غنيًّا عن الإخبار به، وكذا إيمانُهم واستنظارهم يومئذ، وإنّما المحتاج إلى البيان عدمُ نفع ذلك الإيمان وعدمُ الإنظار، كأنّه قيل: لا تستعجلوا، فكأنّي بكم قد آمنتم فلم ينفعكم، واستنظرتم فلم تُنظَرُوا. وهذا على الوجه الأوّل ظاهر، وأمّا على الأخيرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ، لا عن كافّة الكفرة كما في الوجه الأوّل، كيف لا وقد نَفَع الإيمانُ الطلقاءَ يومَ الفتح، وناسًا آمنوا يومَ بدرٍ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ قيل: أي: الغلبةَ عليكم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة، ٥٢/٩]. والأظهَر أن يقال: إنّهم منتظرون هلاكَهم كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة، ٢١٠/٢]، ويقرُب منه ما قيل: وانتظِر عذابَنا إنّهم منتظروه، فإنّ استعجالهم المذكور وعكوفَهم على ما هم عليه مِن الكفر والمعاصي في حكم انتظارِهم العذابَ المترتّب عليه لا محالةَ.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٢/٨.

وقُرِئ على صيغة المفعول[١] على معنى أنهم أحِقّاء بأن يُنتظَر هلاكُهم، أو فإنّ الملائكة ينتظرونه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك] أُعطي مِن الأجر كأنّما أحيى ليلة القدر».[٢] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] في بيتِه لم يدخل الشيطان بيتَه ثلاثة أيّام».[٣]

---

١ أي: "مُنتَظَرُونَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣ ط س + تم. | الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٣/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٨٩/٣.

سورة السجدة

وتسمَّى المضاجع أيضاً كما في «الإتقان»[١]، وفي «مجمع البيان» أنها كما تسمَّى سورةَ السجدة تسمَّى سجدةَ لقمان، لئلَّا تَلْتَبِسَ بحم السجدة[٢].

وأُطْلِقَ القولُ بمكِّيتها، أخرج ابن الضُّريس وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس أنها نزلت بمكة[٣]. وأخرج ابنُ مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله[٤].

وجاء في روايةٍ أخرى عن الحبر استثناءٌ، أخرج النحاس عنه رضي الله عنه أنه قال: نزلت سورةُ السجدة بمكة سوى ثلاثِ آياتٍ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى تمام الآيات الثلاث[٥]. ورُوي مثلُه عن مجاهدٍ والكلبيِّ.

واستثنى بعضُهم أيضاً آيتين أُخريَيْنِ، وهما قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلخ، واستدلَّ عليه ببعض الروايات في سبب النزول، وستطَّلع على ذلك إن شاء الله تعالى. واستُبْعِدَ استثناؤهما لشدَّة ارتباطهما بما قبلهما.

وهي تسعٌ وعشرون آيةً في البصريِّ، وثلاثون في الباقية، ووَجْهُ مناسبتها لِمَا قبلها اشتمالُ كلٍّ على دلائل الألوهية. وفي «البحر»: لمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلُ دلائلَ التوحيد وهو الأصلُ الأول، ثم ذكر جلَّ وعلا المعادَ وهو الأصلُ الثاني،

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٣.

(٢) مجمع البيان ٢١/ ٧١.

(٣) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٣-٣٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٤٤، والدر المنثور ٥/ ١٧٠.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٠.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٨٠.

وختم جلَّ شأنُه به السورةَ، ذكر تعالى في بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوّة[١].

وقال الجلال السيوطيُّ في وجه الاتصال بما قبلها: إنها شرحٌ لمفاتح الغيب الخمسة التي ذُكرت في خاتمة ما قبلُ:

فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ شَرَحَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ولذلك عقّب بقوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ شَرَحَ قولَه سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الآياتِ شَرَحَ قولَه جلَّ جلاله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وقولُه عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ شَرَحَ قولَه تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

وقولُه جلّ وعلا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ شَرَحَ قولَه سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٢]. اهـ، ولا يخلو عن نظر.

وجاء في فضلها أخبارٌ كثيرةٌ، أخرج أبو عبيد وابنُ الضُّريس من مُرْسَلِ المسيَّب بن رافع، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تجيءُ ألم تنزيل ـ وفي رواية: ألم السجدة ـ يومَ القيامة لها جناحان تظلُّ صاحبها وتقولُ: لا سبيلَ عليه لا سبيل عليه»[٣].

وأخرج الدارميُّ والترمذيُّ وابنُ مردويه عن طاوس قال: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ تفضُلان على كلِّ سورةٍ في القرآن بستِّين حسنةً[٤].

---

(١) البحر ٧/١٩٦.
(٢) تناسق الدرر ص٧٣-٧٤.
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٣٥، ولابن الضريس ص١٠٠.
(٤) سنن الدارمي (٣٤١٢)، وهو في سنن الترمذي إثر الحديث (٢٨٩٢) وفيه: بسبعين حسنة.

وفي روايةٍ عن ابن عمر: تفضُلان ستِّين درجةً على غيرهما من سور القرآن[١].

وأخرج أبو عبيد في «فضائله» وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي، والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ (الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ) السجدة و(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ)[٢].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) و(الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ) السجدة بين المغرب والعشاء الآخِرةِ فكأنما قام ليلة القدر»[٣]. وروى نحوَه هو والثعلبيُّ والواحديُّ من حديث أُبيّ بن كعب[٤]. والثعلبيُّ دونهم من حديث ابن عباس[٥]. وتعقَّب ذلك الشيخ وليُّ الدين قائلاً: لم أقف عليه، وهذه الرواياتُ كلُّها موضوعةٌ.

لكنْ رأيتُ في «الدر المنثور» أنَّ الخرائطيَّ أخرج في «مكارم الأخلاق» من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال: ما على الأرض رجلٌ يقرأ (الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ) السجدة و(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) في ليلةٍ إلا كُتب له مثلُ أجر ليلةِ القدر. قال حاتم: فذكرت ذلك لعطاء فقال: صدق طاوس، والله ما تركتُهنَّ منذ سمعتُ بهنَّ إلا أنْ أكون مريضاً[٦]. ولم أقف على ما قيل في هذا الخبر صحةً

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٣٦.

(٢) فضائل القرآن ص١٣٦، ومسند أحمد (١٤٦٥٩)، ومسند عبد بن حميد (١٠٤٠)، وسنن الدارمي (٣٤١١)، وسنن الترمذي (٢٨٩٢)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٧٠٦)-(٧٠٩)، والمستدرك ٢/ ٤١٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧) و(١٢٠٩).

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٧٠. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١: في إسناده داود بن معاذ، وهو ساقط.

(٤) تفسير الثعلبي ٧/ ٣٥١، وهو فيه من طريق ابن عباس عن أبيٍّ عن النبي ﷺ، وفي إسناده أبو عصمة نوح بن أبي مريم، قال عنه الحافظ في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع. وهو في الوسيط للواحدي ٢/ ٤٤٩ من طريق هارون بن كثير، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أمامة، عن أبي بن كعب به. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٨٦: هارون بن كثير عن زيد بن أسلم مجهول، وزيد عن أبيه نكرة.

(٥) تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١، وينظر الموضوعات لابن الجوزي ٢/ ٣٠٣-٣٠٦.

(٦) الدر المنثور ٥/ ١٧١.

وضعفاً ووضعاً، وفيه أخبارٌ كثيرةٌ في فضلها غير هذا، والله تعالى أعلم بحالها.

وكان ﷺ يقرؤها و(هَلْ أَتَىٰ) في صلاة فجر الجمعة، وهو مُشْعِرٌ بفَضْلِها، والحديثُ في ذلك صحيحٌ لا مقال فيه؛ أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائيُّ وابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يومَ الجمعة (الٓمٓ * تَنزِيلُ) السجدة و(هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ)[1]. وأخرج أبو داود وهؤلاء إلا البخاريَّ نحوَه عن ابن عباس[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ إنْ جُعل اسماً للسورة أو القرآنِ فمحلُّه الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الم، وقولُه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ على أنه مصدرٌ باقٍ على معناه لقَصْدِ المبالغة، أو بتقديرِ مضافٍ، أو هو مؤوَّلٌ باسم المفعول - أي: مُنْزَلُ - وإضافتُه إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، أو بيانيةٌ بمعنى مِن، وقولُه سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرٌ ثالثٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ خبرٌ رابعٌ.

وجوِّز أن يكون (الٓمٓ) مبتدأ وما بعده أخبارٌ له، أي: المسمَّى بالم الكتابُ المنزلُ لا ريبَ فيه كائنٌ من ربِّ العالمين. وتعقِّب بأنَّ ما يُجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عَهْدَ بالنسبة قبلُ فحقُّها الإخبارُ بها.

وقال أبو البقاء: «الم» يجوزُ أن يكون مبتدأً، و«تنزيل» بمعنى منزَلٍ خبرُه، و«لا ريب فيه» حال من «الكتاب» والعامل فيها المضافُ، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ، و«من ربّ» متعلِّقٌ بـ «تنزيل»، ويجوز أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ هو حالٌ من الضمير

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٤١، وصحيح البخاري (٨٩١)، وصحيح مسلم (٨٨٠)، وسنن النسائي ٢/ ١٥٩، وسنن ابن ماجه (٨٢٣)، وهو عند أحمد (١٠١٠٢).

(٢) صحيح مسلم (٨٧٩)، وسنن أبي داود (١٠٧٥)، وسنن النسائي ٣/ ١١١، وهو عند أحمد (١٩٩٣).

المجرور في «فيه» والعامل فيها الظرف لا «ريب» لأنه هنا مبنيٌّ[(١)]. وفيه ما سمعتَ، وهذا التعلُّقُ يجوز أيضاً على تقدير أن يكون «الم» خبر مبتدأ محذوفٍ وما بعده أخباراً لذلك المحذوف.

وإن جُعِلَ «الم» مسروداً على نمط التعديد فلا محلَّ له من الإعراب، وفي إعراب ما بعدُ عدةُ أوجهٍ، قال أبو البقاء: يجوزُ أن يكون «تنزيل» مبتدأ و«لا ريب فيه» الخبر و«من ربِّ» حالٌ كما تقدم، ولا يجوزُ على هذا أن يتعلَّق بـ «تنزيل» لأنَّ المصدر قد أُخْبِرَ عنه، ويجوز أن يكون الخبر «من ربِّ»، و«لا ريبَ» حالاً من «الكتاب»، وأن يكون خبراً بعد خبرٍ[(٢)]. انتهى.

ووجهُ مَنْعِ التعلُّق بالمصدر بعد ما أُخبر عنه أنه عاملٌ ضعيفٌ، فلا يتعدَّى عملُه لِمَا بعد الخبر، وعن التزام حديث التوسُّع في الظرف سعةٌ هنا، أو أنَّ المتعلِّق من تمامه والاسمُ لا يخبَرُ عنه قبل تمامه.

وجوَّز ابن عطية تعلُّق «من ربِّ» بـ «ريب»[(٣)]. وفيه أنه بعيدٌ عن المعنى المقصود.

وجوَّز الحوفي كونَ «تنزيل» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: المؤلَّفُ من جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب، وقال أبو حيان: الذي أختارُه أن يكون «تنزيل» مبتدأ و«لا ريب فيه» اعتراضٌ لا محلَّ له من الإعراب، و«من ربِّ العالمين» الخبر[(٤)].

وضمير «فيه» راجعٌ لمضمون الجملة، أعني كونه منزلاً من ربِّ العالمين، لا للتنزيل ولا للكتاب، كأنه قيل: لا ريبَ في ذلك، أي: في كونه منزلاً من ربِّ العالمين، وهذا ما اعتمد عليه الزمخشريُّ وذكر أنه الوجهُ، ويشهدُ لوجاهته قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنَّ قولهم: هذا مفترًى، إنكارٌ لأنْ يكونَ من ربِّ

---

(١) الإملاء ٤/ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧. وقال أبو حيان في البحر ٧/ ١٩٧: ليس بجيد؛ لأن نفي الريب عنه مطلقاً هو المقصود.

(٤) البحر ٧/ ١٩٦.

العالمين[١]، أي: فالأنسبُ أن يكون نفيُ الريب عمَّا أنكروه، وهو كونُه من ربِّ العالمين جلَّ شأنه، وقيل: أي: فلا بدَّ من أنْ يكونَ مورده حكماً مقصوداً بالإفادة لا قيداً للحكم بنفي الريب عنه. وفيه بحثٌ.

وكذا قولُه سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقريرٌ لِمَا قبله، فيكونُ مثله في الشهادة، ثم قال في نظم الكلام على ذلك: إنه أسلوبٌ صحيحٌ مُحْكَمٌ، أَثْبتَ سبحانه أولاً أنَّ تنزيله من ربِّ العالمين وأن ذلك مما لا ريب فيه، أي: لا مدخلَ للريب في أنه تنزيلُ الله تعالى، وهو أبعدُ شيءٍ منه؛ لأنَّ نافيَ الريب ومميطَه معه لا ينفك أصلاً عنه، وهو كونُه معجزاً للبشر، ثم أضرب جلَّ وعلا عن ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ لأن «أم» هي المنقطعةُ الكائنةُ بمعنى بل والهمزة، إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه؛ لظهورِ عجز بُلغائهم عن مثل أقصرِ سورةٍ منه، فهو إمَّا قولُ متعنِّتٍ مكابرٍ، أو جاهلٍ عمِيَتْ منه النواظر، ثم أضرب سبحانه عن الإنكار إلى إثبات أنه الحقُّ من ربك[٢].

وفي «الكشف» أنَّ الزمخشريَّ بيَّن وجاهة كون «تنزيل الكتاب» مبتدأً و«لا ريب فيه» اعتراضاً و«من ربِّ العالمين» خبراً بحُسْنِ موقع الاعتراض إذ ذاك، ثم حُسْنِ الإنكار على الزاعم أنه مفترًى مع وجود نافي الريب ومميطِه، ثم إثباتِ ما هو المقصودُ وعدمِ الالتفات إلى شَغَبِ هؤلاء المكابِرَةِ بعد التلخيص البليغ بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وما في إيثار لفظ «الحق» وتعريفِه تعريفَ الجنس من الحُسْنِ. ويَقْرُبُ عندي من هذا الوجه جَعْلُ «تنزيل» مبتدأ، وجملة «لا ريب فيه» في موضع الحال من «الكتاب» و«من رب» خبراً، فتدبَّرْ ولا تغفل.

وزعم أبو عبيدة أنَّ «أم» بمعنى بل الانتقالية، وقال: إنَّ هذا خروجٌ من حديثٍ إلى حديثٍ[٣]، وليس بشيء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٣١، وقوله: إن هذا خروج من حديث...، هو من كلام أبي حيان في البحر ٧/ ١٩٧، وعنه نقل المصنف.

والظاهر أنَّ «من ربك» في موضع الحال، أي: كائناً من ربِّك. وقيل: يجوزُ جَعْلُه خبراً ثانياً.

وإضافةُ الربِّ إلى «العالمين» أولاً، ثم إلى ضمير سيد المخاطَبين ﷺ ثانياً، بعدَ ما فيه من حُسْنِ التخلُّص إلى إثبات النبوَّةِ وتعظيم شأنِه علا شأنُه، فيه أنه ﷺ العبدُ الجامع الذي جُمِعَ فيه ما فرِّقَ في العالم بالأسر، ووروده على أسلوب الترقِّي دلَّ على أنَّ جمعيته ﷺ أتمُّ مما لكلِّ العالَم، وحقَّ له ذلك صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ بيانٌ للمقصود من تنزيله، فقيل: هو متعلِّقٌ بـ «تنزيل». وقيل: بمحذوفٍ، أي: أنزله لتنذر.. إلخ. وقيل: بما تعلَّق به «من ربك».

و«قوماً» مفعولٌ أول لـ «تنذر»، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: العقابَ. و«ما» نافيةٌ كما هو الظاهر، و«من» الأولى صلةٌ، و«نذير» فاعلُ «أتاهم»، ويطلق على الرسول وهو المشهورُ، وعلى ما يعمُّه والعالِمَ الذي ينذرُ عنه عزَّ وجل؛ قيل: وهو المرادُ هنا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وجوِّز أن يكون النذير ها هنا مصدراً بمعنى الإنذار.

و«من قبلك» أي: من قبل إنذارك، أو: من قبل زمانك، متعلِّقٌ بـ «أتى»، والجملةُ في موضع الصفة لـ «قوماً»، والمراد بهم قريشٌ على ما ذهب إليه غيرُ واحد؛ قال في «الكشف»: الظاهرُ أنه لم يُبْعَثْ إليهم رسولٌ منهم قبلَ رسول الله ﷺ، وكانوا مُلْزَمين بشرائع الرسل من قبلُ وإن كانوا مقصِّرين في البحث عنها، لاسيما دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إن قلنا: إنَّ دعوتي موسى وعيسى عليهما السلام لم تعمَّا، وهو الأظهر. وقد تقدَّم لك القولُ بانقطاع حُكْمِ نبوَّةِ كلِّ نبيٍّ ما عدا نبيَّنا ﷺ بعد موته، فلا يكلَّفُ أحدٌ مطلقاً يجيءُ بعده باتِّباعه، والقولُ بالانقطاع إلا بالنسبة لمن كان من ذريته[١].

---

(١) ينظر ما سلف ٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤.

والظاهرُ أنَّ قريشاً كانوا ملزمين بملَّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنهم لم يزالوا على ذلك إلى أن فَشَتْ في العرب عبادةُ الأصنام التي أحدثها فيهم عمرو الخزاعيُّ لعنه الله تعالى، فلم يبق منهم على الملَّة الحنيفية إلا قليلٌ، بل أقلُّ من القليل، فهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فإنه عامٌّ للرسول وللعالِم الذي يُنْذِرُ، كذا قيل.

واستشكل مع ما هنا، وأُجيب بأن المراد هنا: ما أتاهم نذيرٌ منهم من قبلك، وإليه يشير كلامُ «الكشف»، وهناك: إلَّا خلا فيها نذيرٌ منها أو من غيرها، أو يُحمل النذير فيه على الرسول، وفي تلك الآية على الأعم، قال أبو حيان في تفسير سورة الملائكة: إنَّ الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كلِّ أمة، إمَّا بمباشرةٍ من أنبيائهم وإما بنقلٍ، إلى وقتِ بعثةِ محمد ﷺ، والآياتُ التي تدلُّ على أنَّ قريشاً ما جاءهم نذيرٌ معناها: لم يباشرهم وآباءهم الأقربين، وأمَّا أنَّ النذارةَ انقطعت فلا، نعم لمَّا شَرَعَتْ آثارُها تندرِسُ بُعِثَ محمدٌ ﷺ. وما ذكره أهلُ علم الكلام من حالِ أهل الفترات فإنَّ ذلك على حسب الفرض لا أنه واقعٌ، فلا توجَدُ أمةٌ على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله عزَّ وجل وعبادته[1]. انتهى.

وفي القلب منه شيءٌ، ومقتضاه أنَّ المنفيَّ هاهنا إتيانُ نذيرٍ مباشرٍ ـ أي: نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ـ قريشاً الذين كانوا في عصره ﷺ قبله ﷺ، وأنه كان فيهم مَن ينذرُهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده بالنقل، أي: عن نبيٍّ كان يدعو إلى ذلك، والأول مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، بل لا ينبغي أن يتوقَّف فيه إنسان، والثاني مظنونُ التحقُّق في زيد بن عمرو بن نفيل العدويِّ والدِ سعيدٍ أحدِ العشرة، فإنه عاصَرَ النبيَّ ﷺ، واجتمع وآمن به قبل بعثته ﷺ، ولم يُدْرِكْها إذ قد مات وقريشٌ تبني الكعبة، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين، وكان على ملَّة إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، فقد صحَّ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيتُ زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم

---

(١) البحر ٧/ ٣١٠.

غيري[١]. وفي بعض طرق الخبر عنه أيضاً بزيادةٍ: وكان يقول: اللهم إني لو أعلمُ أحبَّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكنِّي لا أعلم. ثم يسجدُ على راحلته[٢].

وذكر موسى بن عقبة في المغازي: سمعتُ مَن أَرْضَى يحدِّث أنَّ زيد بن عمرو كان يعيبُ على قريشٍ ذَبْحَهم لغير الله تعالى، وصحَّ أنه لم يأكل من ذبائح المشركين التي أُهِلَّ بها لغير الله[٣].

وأخرج الطيالسيُّ في مسنده عن ابنه سعيد أنه قال: قلتُ للنبيِّ ﷺ: إنَّ أبي كان كما رأيتَ وكما بلغك، أفأستغفرُ له؟ قال: «نعم فإنه يُبعث يومَ القيامة أمةً وحده»[٤].

ولا يبعُدُ ممن كان هذا شأنه الإنذارُ والدعوةُ إلى عبادة الله تعالى، بل مَن أَنْصفَ يرى تضمُّنَ كلامه الذي حكته أسماءُ، وإنكارَه على قريشٍ الذبحَ لغير الله تعالى الذي ذكره الطيالسيُّ[٥]، الدعوةَ إلى دين إبراهيم عليه السلام وعبادةِ الله سبحانه وحده. وكذا تضمَّن كلامه النقل أيضاً.

ويُعلم مما نقلناه أن الرجل رضي الله عنه لم يكن نبيّاً وهو ظاهرٌ، وزعم بعضُهم أنه كان نبيًّا، واستدلَّ على ذلك بأنه كان يسندُ ظهره إلى الكعبة ويقول: هلمُّوا إليَّ فإنه لم

---

(١) علقه البخاري (٣٨٢٨)، ووصله ابن سعد ٣/ ٣٨٠، والحاكم ٣/ ٤٤٠ وصححه، والذهبي في السير ١/ ١٢٨، وأخرجه أيضاً ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥.

(٢) وردت هذه الزيادة في رواية ابن إسحاق للحديث التي في سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥، وذكرها الذهبي في السير ١/ ١٢٩، وابن حجر في التهذيب ١/ ٦٦٩، وعندهم جميعاً: راحته، بدل: راحلته.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: . . .ثم قال زيد: إني لستُ آكلُ إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله. إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

(٤) مسند الطيالسي (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٦٤٨)، وفي إسناده المسعودي، قال الذهبي في السير ١/ ١٢٩: المسعودي ليس بحجة.

(٥) ورد إنكاره على قريش ذلك ضمن حديث سعيد بن زيد الذي سلفت قطعة منه آنفاً، وورد ذلك أيضاً في حديث ابن عمر عند البخاري، وقد سلف تخريجه قريباً.

يَبْقَ على دين الخليل غيري. وصحةُ ذلك ممنوعةٌ، وعلى فَرْضِ التسليم لا دليلَ فيه على المقصود، كما لا يخفى على مَن له أدنى ذوق.

ومِثْلُ زيدٍ رضي الله عنه قسُّ بنُ ساعدة الإياديُّ، فإنه رضي الله عنه كان مؤمناً بالله عز وجل داعياً إلى عبادته سبحانه وحده، وعاصَر النبيَّ ﷺ، ومات قبل البعثة على الملَّة الحنيفية، وكان من المعمَّرين، ذكر السجستاني أنه عاش ثلاث مئةٍ وثمانين سنة[1]، وقال المرزباني: ذكر كثيرٌ من أهل العلم أنه عاش ستَّ مئة سنة[2]، وذكروا في شأنه أخباراً كثيرةً، لكنْ قال الحافظُ ابن حجر في كتابه «الإصابة»: قد أفرد بعضُ الرواة طريقَ [حديث] قسٍّ وفيه شعرُه وخطبتُه، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها، وطرقُه كلُّها ضعيفةٌ، وعَدَّ منها ما عَدَّ فليراجَعْ[3].

ثم إنَّ الإشكال إنما يتوهَّم لو أُريدَ بقريش جميعُ أولاد قصيٍّ أو فهرٍ أو النضر أو إلياس أو مضر، أمَّا إذا أُريدَ مَن كان منهم حين بعث ﷺ فلا، كما لا يخفى على المتأمِّل، فتأمَّل.

وقيل: المراد بهم العربُ: قريشٌ وغيرُهم، ولم يأتِ المعاصرين منهم رسولَ الله ﷺ نذيرٌ من الأنبياء عليهم السلام غيرُه ﷺ، وكان فيهم مَن ينذر ويدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده وليس بنبيٍّ على ما سمعتَ آنفاً، وأمَّا العرب غيرُ المعاصرين فلم يأتهم من عهد إسماعيل عليه السلام نبيٌّ منهم، بل لم يُرْسَلْ إليهم نبيٌّ مطلقاً، وموسى وعيسى وغيرُهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يُبعثوا إليهم على الأظهر، وخالد بنُ سنانٍ العبسيُّ عند الأكثرين ليس بنبيٍّ، وخبرُ ورود بنتٍ له عجوزٍ على النبيِّ ﷺ، وقوله ﷺ لها: «مرحباً بابنة نبيٍّ ضيَّعه قومُه» ونحوُه من الأخبار مما للحفَّاظ فيه مقالٌ لا يَصْلُحُ معه للاستدلال، وفي شروح «الشفا» و«الإصابة» للحافظ ابن حجر بعضُ الكلام في ذلك[4].

---

(١) المعمرون لأبي حاتم السجستاني كما في الإصابة ٨/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) معجم الشعراء للمرزباني ص٢٢٢، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في الإصابة ٨/ ٢٥٤.

(٣) الإصابة ٨/ ٢٥٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وحديث قس في الأحاديث الطوال للطبراني (٢٢).

(٤) «نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض» للخفاجي ٤/ ٥٥٢، والإصابة ٣/ ١٧٧-١٨٢، =

وقيل: المراد بهم أهلُ الفترة من العرب وغيرِهم حتى أهل الكتاب، والمعنى: ما أتاهم نذيرٌ من قبلك بعد الضلال الذي حدث فيهم.

هذا وكأنِّي بك تَحمِلُ النذير هنا على الرسول الذي ينذر عن الله عز وجل، وكذا في قوله تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ليوافق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل:٣٦] وأظنُّ أنك تجعلُ التنوين في «أمة» للتعظيم، أي: وإن من أمةٍ جليلةٍ معتنًى بأمرها إلا خلا فيها نذيرٌ، ولقد بعثنا في كلِّ أمةٍ جليلةٍ معتنًى بأمرها رسولاً[1].

أو تعتبر العربَ أمةً، وبني إسرائيل أمةً، ونحو ذلك أمةً، دون أهل عصرٍ واحدٍ، وتحملُ مَن لم يأتهم نذيرٌ على جماعةٍ من أمةٍ لم يأتهم بخصوصهم نذير. ومما يُستأنس به في ذلك أنه حين يُنْفَى إتيانُ النذير يُنْفَى عن قومٍ ونحوِه لا عن أمة، فليتأمل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام في هذا المقام.

وجوِّز كونُ «ما» موصولةً وقعت مفعولاً ثانياً لـ «تنذر» و«من نذير» عليه متعلِّقٌ بـ «أتاهم»، أي: لتنذر قوماً العقابَ الذي أتاهم من نذيرٍ من قبلك، أي: على لسان نذيرٍ من قبلك، واختاره أبو حيان[2]، وعليه لا مجالَ لتوهُّم الإشكال، لكنْ لا يخفَى أنه خلافُ المتبادر الذي عليه أكثر المفسرين.

والاقتصارُ على الإنذار في بيان الحكمة لأنه الذي يقتضيه قولهم: «افتراه»، دون التبشير.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ أي: لأَجْلِ أن يهتدوا بإنذارك إياهم، أو: راجياً لاهتدائهم. وجَعْلُ الترجِّي مستعاراً للإرادة منسوباً إليه عز وجل نزغةٌ اعتزالية.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

= وحديث: «مرحباً بابنة...» ذكر له ابن حجر روايات كثيرة، وأخرجه هو عن سعيد بن جبير وقال: وهذا أصح ما وقفت عليه في ذلك مع إرساله. اهـ، ولكن ذكر الخفاجي أنه يعارضه حديث البخاري: «لا نبي بيني وبين عيسى». وقد سلف الكلام في المسألة ٢٠/ ٨٨.

(١) بعدها في الأصل: منهم.

(٢) في البحر ٧/ ١٩٧.

مرَّ بيانه فيما سلف على مذهبي السلف والخلف(١).

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما لكم مجاوِزِينَ الله عزَّ وجلَّ ـ أي: رضاه سبحانه وطاعتَه تعالى ـ وليٌّ ولا شفيعٌ، أي: لا ينفعكم هذان من الخلق عنده سبحانه دون رضاه جلَّ جلاله، فـ «من دونه» حالٌ من مجرورِ «لكم»، والعاملُ الجارُّ أو متعلَّقه، وعلى هذا المعنى لا دليلَ في الخطاب على أنه تعالى شفيعٌ دون غيره ليقال: كيف ذاك وتعالى جلَّ شأنه أن يكون شفيعاً؟ وكفى في ذلك ردُّه ﷺ على الأعرابي حيث قال: إنَّا نستشفعُ بالله تعالى إليك(٢).

وقد يقال: الممتنعُ إطلاقُ الشفيع عليه تعالى بمعناه الحقيقيِّ، وأمَّا إطلاقُه عليه سبحانه بمعنى الناصر مجازاً فليس بممتنعٍ، ويجوزُ أن يعتبر ذلك هنا، وحينئذٍ يجوز أن يكون «من دونه» حالاً مما بعدُ قدِّمَ عليه لأنه نكرةٌ، و«دون» بمعنى غير، والمعنى: ما لكم وليٌّ ولا ناصرٌ غيرُ الله تعالى. ويجوز أن يكون حالاً من المجرور كما في الوجه السابق، والمعنى: ما لكم إذا جاوزتُم ولايتَه ونصرتَه جلَّ وعلا وليٌّ ولا ناصر.

ويظهر لي أنَّ التعبير بالشفيع هنا من قَبيل المشاكلة التقديرية؛ لِمَا أنَّ المشركين المنذَرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا، ويزعمون أنَّ كلَّ واحدٍ منها شفيعٌ لهم.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ أي: ألا تسمعون هذه المواعظَ فلا تتذكرون بها، أو: أتسمعونها فلا تتذكرون بها، فالإنكارُ على الأول متوجِّهٌ إلى عدم السماع وعدمِ التذكُّر معاً، وعلى الثاني إلى عدم التذكُّر مع تحقُّقِ ما يوجبُه من السماع.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قيل: أي: أَمْرَ الدنيا وشؤونَها، وأصلُ التدبير: النظرُ في دابر الأمر والتفكُّر فيه ليَجِيءَ محمودَ العاقبة، وهو في حقِّه عزَّ وجلَّ مجازٌ عن إرادة الشيء على وجه الإتقان ومراعاةِ الحكمة، والفعلُ مضمَّنٌ معنى الإنزال، والجارَّان في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّقان به، و«من» ابتدائيةٌ و«إلى»

(١) عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.
(٢) سلف ٧/ ١٧٦ و١٦/ ٢٢٣، وفيه: عليك، بدل: إليك.

انتهائيةٌ، أي: يريده تعالى على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة مُنْزِلاً له من السماء إلى الأرض، وإنزالُه من السماء باعتبار أسبابه، فإنَّ أسبابه سماويةٌ من الملائكة عليهم السلام وغيرِهم.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي: يصعدُ ويرتفعُ ذلك الأمرُ بعد تدبيره ﴿إِلَيْهِ﴾ عزَّ وجل، وهذا العروجُ مجازٌ عن ثبوته في علمه تعالى، أي: تعلُّقِ عِلْمِه سبحانه به تعلُّقاً تنجيزياً بأن يعلمه جل وعلا موجوداً بالفعل، أو عن كتابته في صحف الملائكة عليهم السلام القائمين بأمره عز وجل موجوداً كذلك.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ أي: في برهةٍ متطاولةٍ من الزمان، فليس المراد حقيقةَ العدد، وعبّر عن المدة المتطاولة بالألْفِ لأنها منتهى المراتب وأقصى الغايات، وليس مرتبةٌ فوقها إلا ما يتفرَّع منها من أعداد مراتبها.

والفعلان متنازعان في الجارِّ والمجرور، وقد أُعمل الثاني منهما فيه، فتفيد الآيةُ طولَ امتداد الزمان بين تعلُّق إرادته سبحانه بوجود الحوادث في أوقاتها متقنةً مراعًى فيها الحكمةُ، وبين وجودها كذلك، وظاهرها يقتضي أنَّ وجودها لا يتوقَّفُ على تعلُّق الإرادة مرةً أخرى، بل يكفي فيه التعلُّقُ السابق. وقيل: «في يوم» متعلِّقٌ بـ «يعرج» وليس الفعلان متنازعين فيه، والمرادُ بعروج الأمر إليه بعد تدبيره سبحانه إياه وصولُ خبر وجوده بالفعل كما دبَّر جل وعلا بواسطة الملك، وعَرْضُه ذلك في حضرةٍ قد أعدَّها سبحانه للإخبار[1] بما هو جلَّ جلالُه أعلمُ به، إظهاراً لكمال عظمته تبارك وتعالى وعظيمِ سلطنته جلَّت سلطنتُه، وهذا كعرض الملائكة عليهم السلام أعمالَ العباد الوارد في الأخبار، و«ألف سنةٍ» على حقيقتها، وهي مسافةُ ما بين الأرض ومحدَّب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر، فإنَّ ما بين السماء والأرض خمسُ مئة عام وثخن السماء كذلك كما جاء في الأخبار الصحيحة[2]،

---

(١) في (م): للاختبار، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٢١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٥١) و(٨٥٢) عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. ورويت فيه أحاديث مرفوعة، إلا أنها كلها ضعيفة، ينظر حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٤٩). وحديث أبي ذر ﷺ عند البزار (٤٠٧٥)، والبيهقي في الأسماء =

والملكُ يقطع ذلك في زمانٍ يسير، فالكلامُ على التشبيه، فكأنه قيل: يريد تعالى الأمرَ متقناً مراعًى فيه الحكمةُ بأسبابٍ سماويةٍ نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرض، فيكون كما أراد سبحانه، فيعرج ذلك الأمر مع الملك ويرتفعُ خبرُه إلى حضرته سبحانه في زمانٍ هو كألف سنةٍ مما تعدُّون.

وقيل: العروجُ إليه تعالى صعودُ خبرِ الأمر مع الملك إليه عز وجل، كما هو مرويٌّ عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك، والفعلان متنازعان في «يوم»، والمراد أنه زمانُ تدبير الأمر لو دبَّره البشر، وزمانُ العروج لو كان منهم أيضاً، وإلا فزمانُ التدبير والعروج يسيرٌ.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الدنيا بإظهاره في اللوح المحفوظ، فينزلُ الملك الموكَّلُ به من السماء إلى الأرض، ثم يرجع الملك أو الأمرُ مع الملك إليه تعالى في زمانٍ هو نظراً للنزول والعروج كألف سنة مما تعدُّون، وأُريدَ به مقدارُ ما بين الأرض ومقعَّرِ سماء الدنيا ذهاباً وإياباً، والظاهر أن «يدبِّر» عليه مضمَّنٌ معنى الإنزال، والجارَّان متعلِّقان به لا بفعلٍ محذوفٍ، أي: فينزل به الملكُ من السماء إلى الأرض كما قيل.

وزعم بعضهم أنَّ ضمير«إليه» للسماء، وهي قد تُذكَّر كما في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل:١٨].

وقيل: المعنى: يدبِّر سبحانه أمرَ الدنيا كلَّها من السماء إلى الأرض لكلِّ يومٍ من أيام الربِّ جلَّ شأنه، وهو ألفُ سنة كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، ثم يصير إليه تعالى ويثبتُ عنده عز وجل ويُكتبُ في صحف ملائكته جل وعلا كلَّ وقتٍ من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود، إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبِّر أيضاً ليومٍ آخر، وهلمَّ جرّاً إلى أن تقوم الساعةُ. ويشير إلى هذا ما روي عن مجاهد قال: إنه تعالى يدبِّر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنةٍ من سنيننا، وهو اليومُ عنده تعالى،

= والصفات (٨٥٠)، والذهبي في تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٤٨. وحديث العباس بن عبد المطلب ﷺ عند أحمد (١٧٧٠)، وينظر ما سلف ١٣/ ٤٢٦ و١٧/ ٨٤ وما بعد.

فإذا فرغت ألقى إليهم مثلَها. وعليه «الأمر» بمعنى الشأن، والجارَّان متعلِّقان به أو بمحذوف حال منه، ولا تضمين في «يدبر»، والعروجُ إليه تعالى مجازٌ عن ثبوته وكَتْبِهِ في صحف الملائكة، و«ألف سنة» على ظاهره، و«في يوم» متعلِّق[1] بالفعلين وأُعمل الثاني، كأنه قيل: يدبِّر الأمر ليومٍ مقدارُه كذا ثم يعرج إليه تعالى فيه، كما تقول: قصدتُ ونظرتُ في الكتاب، أي: قصدتُ إلى الكتاب ونظرتُ فيه، ولا يَمنعُ اختلافُ الصلتين من التنازع، وتكرارُ التدبير إلى يوم القيامة يدلُّ عليه العدولُ إلى المضارع مع أنَّ الأمر ماضٍ، كأنه قيل: يجدّد هذا الأمر مستمرًّا.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه تعالى ذلك الأمرُ كلُّه، أي: يصير إليه سبحانه ليحكم فيه في يومٍ كان مقدارُه ألف سنة، وهو يوم القيامة، وعليه «الأمر» بمعنى الشأن، والجارَّان متعلِّقان به أو بمحذوف حال منه، كما في سابقه، والعروجُ إليه تعالى: الصيرورةُ إليه سبحانه، لا ليثبتَ في صحف الملائكة بل ليَحْكُمَ جل وعلا فيه، و«في يوم» متعلِّقٌ بالعروج، ولا تنازُع، والمرادُ بيوم مقدارُه كذا: يومُ القيامة، ولا ينافي هذا قولَه تعالى: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] بناءً على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حَسَبِ الشدة، أو لأنَّ ثَمَّ خمسين موطناً كلُّ موطنٍ ألف سنةٍ.

وقيل: المعنى: يُنْزِلُ الوحيَ مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ثم يَرْجِعُ إليه تعالى ما كان من قبوله أو ردِّه مع جبريل عليه السلام في يومٍ مقدارُ مسافة السير فيه ألفَ سنةٍ، وهو ما بين السماء والأرض هبوطاً وصعوداً، فالأمرُ عليه مرادٌ به الوحيُ، كما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] والعروجُ إليه تعالى عبارةٌ عن خبر القبول والردِّ مع عروج جبريل عليه السلام والتدبير والعروج في اليوم لكن على التوسُّع والتوزيع، فالفعلان متنازعان في الظرف ولكن لا اختلافَ في الصلة، ولا تُنافي الآيةُ على هذا قولَه تعالى شأنه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ بناءً على الوجه الآخر فيه ـ وستَعْرِفُهما إن شاء الله تعالى ـ لأنَّ العروج فيه إلى العرش وفيها إلى السماء الدنيا، وكلاهما عروجٌ إلى الله تعالى على التجوُّز.

---

(١) في (م): يتعلق.

وقيل: المراد بالأمر: المأمورُ به من الطاعات والأعمال الصالحات، والمعنى: يُنْزِلُ سبحانه ذلك مدبَّراً من السماء إلى الأرض، ثم لا يُعمل به، ولا يَصعد إليه تعالى ذلك المأمور به خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولةٍ لقلة الخلَّص من العباد، وعليه «يدبر» مضمَّنٌ معنى الإنزال، و«من» و«إلى» متعلِّقان به، ومعنى العروجِ: الصعودُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والغرضُ من الألفِ استطالةُ المدة، والمعنى استقلالُ عبادة الخلَّص واستطالةُ مدةِ ما بين التدبير والوقوع، و«ثم» للاستبعاد، واستُدلَّ لهذا المعنى بقوله تعالى إثر ذلك: (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) لأنَّ الكلامَ بعضُه مربوطٌ بالبعض، وقلةُ الشكر مع وجود تلك الإنعامات دالةٌ على الاستقلال المذكور.

وقيل: المعنى: يدبِّر أمر الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارِها في العالم من السماء إلى الأرض، وزمانُ طلوعها إلى أن تغربَ وتَرْجِعَ إلى موضعها من الطلوع مقدارُه في المسافة ألفُ سنةٍ، وهي تقطعُ ذلك في يوم وليلة.

هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها، ولا يخفَى على ذي لبٍّ تكلُّفُ أكثر هذه الأقوال ومخالفتُه للظاهر جدًّا، وهي بين يديك فاخْتَرْ لنفسك ما يحلو.

ويظهر لي أنَّ المراد بالسماء جهةُ العلوِّ، مثلُها في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] وبعروج الأمر إليه تعالى صعودُ خبره كما سمعتَ عن الجماعة، و«في يوم» متعلِّق بالعروج بلا تنازُعٍ، وأقول: إنَّ الآية من المتشابه، وأعتقدُ أنَّ الله تعالى يدبِّر أمورَ الدنيا وشؤونَها ويريدُها متقَنةً وهو سبحانه مستوٍ على عرشه، وذلك هو التدبيرُ من جهة العلوِّ، ثم يصعد خبرُ ذلك مع الملك إليه عزَّ وجل إظهاراً لمزيد عظمته جلَّتْ عظمتُه وعظيم سلطنته عَظُمَتْ سلطنتُه، إلى حِكَمٍ هو جلَّ وعلا أعلمُ بها، وكلُّ ذلك بمعنًى لائقٍ به تعالى، مُجامِعٍ للتنزيه مُبايِنٍ للتشبيه حَسْبَما يقوله السَّلَفُ في أمثاله، وقولُ بعضهم: العرشُ موضعُ التدبير، وما دونه موضعُ التفصيل، وما دون السماوات موضعُ التصريف، فيه رائحةٌ ما مما ذكرنا.

وأمَّا تقديرُ يوم العروج هنا بألفِ سنةٍ وفي آيةٍ أخرى بخمسين ألف سنةٍ فقد كثُر الكلام في توجيهه، وقد تقدَّم لك بعضٌ منه.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم، وابنُ الأنباري في «المصاحف»، والحاكمُ وصحَّحه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلتُ على ابن عباس رضي الله عنهما أنا وعبدُ الله بنُ فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسأله عن قوله تعالى: (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ) فكأنَّ ابن عباس اتَّهمه فقال: ما يومٌ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة؟ فقال: إنما سألتُك لتخبرني. فقال رضي الله عنه: هما يومان ذَكرهما الله تعالى في كتابه، الله تعالى أعلمُ بهما، وأكره أنْ أقول في كتاب الله مالا أعلم. فضرب الدهر من ضرباته حتى جلستُ إلى ابن المسيب، فسأله عنهما إنسانٌ فلم يخبر ولم يَدْرِ، فقلت: ألا أخبرك بما سمعتُ من ابن عباس؟ قال: بلى. فأخبرته، فقال للسائل: هذا ابن عباس رضي الله عنهما أبى أن يقول فيهما وهو أعلم منِّي[١].

وبعضُ المتصوِّفة يسمُّون اليومَ المقدَّر بألفِ سنةٍ باليوم الربوبيِّ، واليومَ المقدَّر بخمسين ألفَ سنةٍ باليوم الإلهي، ومحيي الدين قدِّس سرُّه يسمِّي الأولَ يومَ الربِّ والثاني يوم المعارج، وقد ذكر ذلك وأياماً أُخر كيوم الشأن، ويومِ المثل، ويومِ القمر، ويوم الشمس، ويوم زُحل، وأيام سائرِ السيارة، ويومِ الحمل، وأيامِ سائر البروج في «الفتوحات».

وقد سألتُ رئيسَ الطائفة الكشفية[٢] الحادثةِ في عَصْرِنا في كربلاء عن مسألةٍ، فكتب في جوابها ما كتب، واستَطْردَ بيانَ إطلاقات اليوم، وعدَّ من ذلك أربعةً وستِّين إطلاقاً، منها إطلاقُه على اليوم الربوبي، وإطلاقُه على اليوم الإلهي، وأطال الكلام في ذلك المقام.

ولعلنا إن شاء الله تعالى ننقل لك منه شيئاً معتدًّا به في موضعٍ آخر، وسنذكر إن شاء الله تعالى أيضاً تمام الكلام فيما يتعلَّق بالجمع بين هذه الآية وقوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧١، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠٨، والمستدرك ٤/ ٦١٠، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧-٢٢٨، والطبري ٢٣/ ٢٥٤.

(٢) نسبة إلى الكشف والإلهام، ويقال لهم أيضاً: الشيخية، ولهم شطحات وزندقات، ومؤسس هذه الطائفة أحمد بن زين الدين الصقري المطيري الأحسائي البحراني، متفلسف إمامي ولد =

وقوله تعالى: (مِمَّا تَعُدُّونَ) صفةُ «ألف» أو صفة «سنة».

وقرأ ابن أبي عبلة: «يُعْرَج» بالبناء للمفعول[1]، والأصل: يُعْرَجُ به، فحُذف الجارُّ واستتر الضمير. وقرأ جناح بن حبيش: «ثم يَعْرجُ الملائكةُ إليه» بزيادة «الملائكة»، قال أبو حيان: ولعله تفسيرٌ منه لسقوطه في سواد المصحف[2].

وقرأ السلميُّ وابن وثاب والأعمشُ والحسن بخلاف عنه: «يعدُّون» بياء الغيبة[3].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذاتُ الموصوف بتلك الصفات المقتضية للقدرة التامَّة والحكمةِ العامَّة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: كلّ ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: كلّ ما شاهده الخلق، فيدبِّر سبحانه ذلك على وفق الحكمة. وقيل: «الغيبُ» الآخرةُ، و«الشهادة» الدنيا. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ للعباد، وفيه إيماءٌ بأنه عزَّ وجلَّ متفضِّلٌ فيما يفعل جلَّ وعلا. واسمُ الإشارة مبتدأٌ والأوصاف الثلاثة بعده أخبارٌ له، ويجوزُ أن يكون الأول خبراً والأخيران نعتان للأول.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما بخفض الأوصاف الثلاثة، على أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى «الأمر» مرفوعُ المحلِّ على أنه فاعلُ «يعرج»، والأوصافُ مجرورةٌ على البدلية من ضمير «إليه»[4]. وقرأ أبو زيد النحويُّ بخفض الوصفين الأخيرين على أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى الله تعالى مرفوعُ المحلِّ على الابتداء، و«عالم» خبره، والوصفان مجروران على البدلية من الضمير[5].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خبرٌ رابعٌ، أو نعتٌ ثالثٌ، أو نصبٌ

= في الأحساء وتعلم في بلاد فارس، وتنقل بينها وبين العراق، وسكن البحرين، وله الكثير من المصنفات، توفي سنة (١٨٢٦م). هدية العارفين ١/ ١٨٥، والأعلام ١/ ١٢٩.

(١) الكشاف ٣/ ٢٤١، والبحر ٧/ ١٩٨.

(٢) البحر ٧/ ١٩٩، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨، والبحر ٧/ ١٩٩، وهي في القراءات الشاذة ص١١٧، وتحرفت فيه إلى: يعبدون.

(٤) البحر ٧/ ١٩٩.

(٥) البحر ٧/ ١٩٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٧.

على المدح، وجوَّز أبو البقاء كونَه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الذي، وكونَ «العزيز» مبتدأً و«الرحيم» صفتَه وهذا خبرَه[١]. وجملة «خَلَقَه» في محلِّ جرٍّ صفةِ «شيءٍ»، ويجوزُ أن تكون في محلِّ نصبِ صفة «كلّ»، واحتمالُ الاستئناف بعيدٌ.

أي: حسَّن سبحانه كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته؛ لأنه ما من شيءٍ منها إلا وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمةُ واستدعته المصلحةُ، فجميع المخلوقات حسنةٌ وإن تفاوتَتْ في مراتب الحُسْنِ، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ونفيُ التفاوتِ في خَلْقِه تعالى في قوله سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] على معنًى ستعرفُه إن شاء الله تعالى غيرُ منافٍ لِمَا ذُكر.

وجوِّز أن يكون المعنى: عَلِمَ كيف يخلقه، من قوله: قيمةُ المرء ما يُحْسِنُ، وحقيقتُه: يُحْسِنُ معرفتَه، أي: يعرفُه معرفةً حسنةً بتحقيقٍ وإيقان. ولا يَخْفَى بعدُه.

وقرأ العربيان وابن كثير: «خَلْقَه» بسكون اللام[٢]، فقيل: هو بدلُ اشتمالٍ من «كلّ»، والضميرُ المضافُ هو إليه له، وهو باقٍ على المعنى المصدري.

وقيل: هو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلُ بعضٍ من كلٍّ، والضميرُ لله تعالى وهو بمعنى المخلوق.

وقيل: هو مفعولٌ ثانٍ لـ «أحسن» على تضمينه معنى أعطى، أي: أعطى سبحانه كلَّ شيءٍ خَلْقَه اللائقَ به بطريق الإحسان والتفضُّل.

وقيل: هو المفعولُ الأولُ، و«كل شيء» المفعولُ الثاني، وضميرُه لله سبحانه، على تضمين الإحسان معنى الإلهام كما قال الفرَّاء[٣]، أو التعريف كما قال أبو البقاء[٤]، والمعنى: أَلْهَمَ أو عرَّفَ خَلْقَه كلَّ شيءٍ مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى

---

(١) الإملاء ٤/ ١٨٤.

(٢) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، وهي قراءة يعقوب وأبي جعفر من العشرة، والعربيان هما ابن عامر وأبو عمرو.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٠.

(٤) في الإملاء ٤/ ١٨٤.

معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

واختار أبوعليٍّ في «الحجة» ما ذكره سيبويه في «الكتاب» أنه مفعولٌ مطلقٌ لـ «أحسن» من معناه، والضميرُ لله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٦٠][١].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: آدمَ عليه السلام ﴿مِن طِينٍ ۝٧﴾، أو: بدأ خَلْقَ هذا الجنس المعروفِ «من طين»، حيث بدأ خَلْقَ آدم عليه السلام خَلْقاً منطوياً على فطرةِ سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليّاً منه.

وقرأ الزهريُّ: «بدا» بالألف بدلاً من الهمزة[٢]؛ قال في «البحر»[٣]: وليس القياسُ في هَدَأَ: هَدَا بإبدال الهمزة أَلِفاً، بل قياسُ هذه الهمزة التسهيلُ بين بين، على أنَّ الأخفش حكى في قرأتُ: قَرَيْتُ، قيل: وهي لغة الأنصار، فهم يقولون[٤] في بدأ: بَدِي بكَسْرِ عينِ الكلمة وياء بعدها، وطَيِّئٌ يقولون في فَعِلَ هذا نحو بَقِيَ: بَقَى كَرَمَى، فاحتمل أن تكون قراءةُ الزهري على هذه اللغة، بأن يكون الأصلُ: بَدِيَ، ثم صار بَدَا، وعلى لغة الأنصار قال[٥] ابن رواحة:

باسمِ الإلهِ وبه بَدِيْنا ... ولو عَبَدْنا غيرَه شَقِيْنا[٦]

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ أي: ذرِّيته، سمِّيتْ بذلك لأنها تنسل وتنفصِلُ منه ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي: خلاصةٍ، وأصلُها ما يُسَلُّ ويخلصُ بالتصفية ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ ممتَهَنٍ لا يُعْتَنَى به وهو المنيُّ.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرِها على ما ينبغي، وأصلُ التسوية: جَعْلُ الأجزاء متساويةً، و«ثم» للترتيب الرُّتْبي أو الذِّكْريِّ.

---

(١) الكتاب ١/ ٣٨١-٣٨٢، والحجة ٥/ ٤٦٠.
(٢) المحتسب ٢/ ١٧٣، والبحر ٧/ ١٩٩.
(٣) ٧/ ١٩٩.
(٤) في البحر: وهي لغيةٌ، والأنصار تقول...
(٥) في البحر: أو على لغة الأنصار وقال.
(٦) الصحاح «بدا»، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩، والبحر ٧/ ١٩٩، والدر المصون ٩/ ٨٣، واللسان (بدا).

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضاف الروح إليه تعالى تشريفاً له، كما في: بيت الله تعالى، وناقة الله تعالى، وإشعاراً بأنه خَلْقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديع.

وقيل: أضافه لذلك إيماءً إلى أنَّ له شأناً له مناسبةٌ ما إلى حضرة الربوبية، ومن هنا قال أبو بكر الرازي: مَن عَرَفَ نفسَه فقد عرف ربه.

ونَفْخُ الروح قيل: مجازٌ عن جَعْلِها متعلِّقةً بالبدن، وهو أوفقُ بمذهب القائلين بتجرُّد الروح وأنَّها غيرُ داخلةٍ في البدن من الفلاسفة وبعضِ المتكلِّمين، كحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمةُ.

وقيل: هو على حقيقته، والمباشرُ له المَلَكُ الموكَّلُ على الرَّحِم، وإليه ذهب القائلون بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ كالهواء سارٍ في البدن سريانَ ماءِ الورد في الورد، والنارِ في الجمر، وهو الذي تشهدُ له ظواهرُ الأخبار، وأقام العلَّامةُ ابنُ القيم عليه نحوَ مئةِ دليل(١).

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب لا يخفَى موقعُ ذِكْرِه بعد نَفْخِ الروح، وتشريفُه بخِلْعةِ الخطاب حين صَلُحَ للخطاب، والجَعْلُ إبداعيٌّ، واللامُ متعلِّقةٌ به، والتقديمُ على المفعول الصريح لِمَا مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر، مع ما فيه من نوعِ طولٍ يخلُّ تقديمُه بجزالة النظم الكريم.

وتقديم السمع لكثرة فوائده، فإنَّ أكثر أمور الدِّين لا تُعلَم إلا من جهته، وأُفرد لأنه في الأصل مصدر. وقيل: للإيماء إلى أنَّ مُدْرَكَه نوعٌ واحدٌ وهو الصوتُ، بخلاف البصر فإنه يدرِكُ الضوءَ واللونَ والشكلَ والحركةَ والسكونَ، وبخلافِ الفؤاد فإنه يدرك مدرَكاتِ الحواسِّ بواسطتها وزيادة على ذلك.

أي: خَلَقَ لمنفعتكم تلك المشاعرَ؛ لتعرفوا أنها ـ مع كونها في أنفسها نعماً جليلةً لا يقادَرُ قَدْرُها ـ وسائلُ إلى التمتُّع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم، وتشكروها بأنْ تَصْرِفوا كلّاً منها إلى ما خُلِقَ هو له، فتُدْرِكوا بسَمْعِكم الآياتِ التنزيليةَ الناطقةَ بالتوحيد والبعثِ، وبأبصاركم الآياتِ التكوينيةَ الشاهدةَ بهما، وتستدلُّوا بأفئدتكم على حقِّيتهما.

---

(١) ينظر المسألة التاسعة عشرة من كتاب الروح لابن القيم.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ بيانٌ لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي، والقلَّةُ بمعنى النفي كما ينبئُ عنه ما بعده. ونُصب الوصفُ على أنه صفةٌ لمحذوف وقع معمولاً لـ «تشكرون»، أي: شكراً قليلاً[١] ـ أو زماناً قليلاً ـ تشكرون.

واستظهر الخفاجيُّ عليه الرحمةُ كونَ الجملة حاليةً لا اعتراضيةً[٢].

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات، إيذاناً بأنَّ ما ذكر من عدم شكرهم تلك النعمَ موجبٌ للإعراض عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المباثَّة. وروي أنَّ القائل أبيُّ بن خلف، فضمير الجمع لرضا الباقين بقوله.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ضعنا فيها بأنْ صِرْنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميَّزُ منه، فهو من ضلَّ المتاع: إذا ضاع. أو: غبنا فيها بالدفن وإن لم نَصِرْ تراباً، وإليه ذهب قطرب، وأنشد قول النابغة يرثي النعمان بن المنذر:

وآبَ مضلُّوه بعينٍ جليةٍ ... وغُودِرَ بالجولان حزمٌ ونائلُ[٣]

وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب: «ضَلِلْنا» بكسر اللام[٤]، ويقال: ضلَّ يَضِلُّ كضَرَبَ يَضْرِبُ، وضلَّ يَضَلُّ كعَلِمَ يَعْلَمُ وهما بمعنًى، والأولُ اللغةُ المشهورةُ الفصيحةُ، وهي لغةُ نجد، والثاني لغة أهل

---

(١) بعدها في (م): تشكرون.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٠.
(٣) ديوان النابغة ص٩٠، وأمالي القالي ١/ ٢٤٧، والصحاح «ضلل»، والنكت والعيون ٤/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، واللسان «ضلل». ورواية الديوان: مُصَلُّوه، وهي رواية الأصمعي كما ذكر البكري في اللآلي ١/ ٥٥٩، وقال: يريد جاء قوم بالخبر، وجاء قوم بعدهم بخبر آخر جلا الشكَّ في الخبر الأول، جعَلَهم بمنزلة المصلِّي من الخيل، وهو الذي يتلو السابق، وقال أبو عبيدة: مصلُّوه يعني أصحاب الصلاة وهم الرهبان. اهـ. وذكره ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٢٢٨ برواية: مصلُّوهم، وقال: لأنهم كانوا نصارى. ونقل البكري عن أبي الحسن الطوسي قوله: وقد سمعت مَن يروي: مُصِلُّوه بالصاد المكسورة، من الصِّلَّة، والصِّلَّة: الأرض. وذكر صاحب اللسان في شرحه: قوله: بعين جلية، أي: بخبر صادق أنه مات، وقوله: وغودر. . .، أي: دُفن بدفن النعمان الحزم والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني.
(٤) القراءات الشاذة ص١١٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، والبحر ٧/ ٢٠٠.

العالية. وقرأ أبو حيوة: «ضُلِّلْنا» بضمِّ الضاد المعجَمةِ وكَسْرِ اللام[1]، ورُوِيَتْ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[2].

وقرأ الحسن والأعمش وأبان بن سعيد بن العاصي: «صَلَلْنا» بالصاد المهملة وفتحِ اللام، ونُسبت إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابنِ عباس رضي الله عنهما[3]، وعن الحسن أنه كسر اللامَ[4]، ويقال فيه نحوُ ما يقال في ضلَّ بالضاد المعجمة وزيادة أَصَلَّ بالهمزة كأفْعَلَ.

قال الفراء: والمعنى: صرنا بين الصَّلَّة، وهي الأرضُ اليابسةُ الصلبةُ كأنها من الصليل؛ لأنَّ اليابس الصلب إذا انشقَّ يكون له صليلٌ. وقيل: أنتنَّا، من الصَّلَّة وهو النتن، وقيل للأرض: الصَّلَّة؛ لأنها استُ الدنيا، وتقول العرب: ضع الصَّلَّة على الصَّلَّة.

وقال النحاس: لا نعرفُ في اللغة «صَلِلْنا» ولكن [يعرف «صلَلْنا»] يقال: أصَلَّ اللحمُ وصَلَّ، وأخَمَّ وخمَّ إذا أنتن[5]. وهذا غريب منه.

وقرأ ابن عامر: «إذا» بترك الاستفهام[6]، والمرادُ الإخبارُ على سبيل الاستهزاء والتهكُّم.

والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ﴾ وهو: نُبعث، أو: يُجدَّد خَلْقُنا، ولا يصحُّ أن يكون هو العامل؛ لمكان الاستفهام و«إنَّ»، وكلٌّ منهما لا يعمل ما بعده فيما قبله، ويُعتبر ما ذكر من نُبعَثُ أو يجدَّد خَلْقُنا جواباً

---

(١) وتشديدها كما في البحر ٧/ ٢٠٠، وهي في القراءات الشاذة ص١١٨.
(٢) البحر ٧/ ٢٠٠.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، والبحر ٧/ ٢٠، وذكرها ابن جني عنهم ٢/ ١٧٣، ولكنه قيَّدها بكسر اللام.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣١، والمحتسب ٢/ ١٧٣، والبحر ٧/ ٢٠٠.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣١. وقال السمين في الدر المصون ٩/ ٨٤ متعقباً ما قاله النحاس: وقد عرفها غير أبي جعفر. وينظر الصحاح (صلل)، والمحتسب ٢/ ١٧٤.
(٦) التيسير ص١٣٢، والنشر ١/ ٣٧٣، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

لـ «إذا» إذا اعتُبرت شرطيةً لا ظرفيةً محضةً. والهمزة للإنكار، والمرادُ تأكيدُ الإنكار، لا إنكارُ التأكيد كما هو المتبادر من تقديمها على أداته، فإنها مؤخَّرةٌ عنها في الاعتبار، وتقديمُها عليها لقوَّةِ اقتضائها الصدارة.

وقرأ نافع والكسائيُّ ويعقوب: «إنَّا» بترك الاستفهام[1] على نحو ما ذكر آنفاً.

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن بيان كفرهم بالبعث إلى بيانِ ما هو أبلغُ وأشنعُ منه، وهو كفرُهم بلقاء ملائكة ربِّهم عند الموت وما يكون بعده جميعاً.

وقيل: هو إضرابٌ وترقٍّ من التردُّد في البعث واستبعادِه إلى الجزم بجَحْدِه، بناءً على أنَّ لقاء الربِّ كنايةٌ عن البعث، ولا يضرُّ فيه ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ كونُ الاستفهام السابق إنكاريّاً وهو يؤول إلى الجحد[2]، فتأمل.

﴿قُلْ﴾ ردّاً عليهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ يستوفي نفوسَكم لا يتركُ منها شيئاً من أجزائها، أو لا يترك شيئاً من جزئياتها ولا يبقي أحداً منكم، وأصل التوفِّي: أَخْذُ الشيء بتمامه، وفسِّر بالاستيفاء لأنَّ التفعُّل والاستفعال يلتقيان كثيراً، كتَقَضَّيْتُه واسْتَقْضَيْتُه، وتعجَّلْتُه واستَعْجَلْتُه.

ونسبةُ التوفِّي إلى ملك الموت باعتبارِ أنه عليه السلام يباشرُ قَبْضَ الأنفُسِ بأمره عزَّ وجلَّ كما يشير إليه قولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبضِ أنفُسِكم ومعرفةِ انتهاءِ آجالكم.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ على رجلٍ من الأنصار يعودُه، فإذا ملكُ الموت عليه السلام عند رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «يا ملك الموت ارفقْ بصاحبي فإنه مؤمن» فقال: أَبْشِر يا محمد فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلم يا محمدُ، إنِّي لأقبضُ روحَ ابنِ آدم فيصرخُ أهله، فأقوم في جانبٍ من الدار فأقول: والله ما لي من ذنبٍ وإنَّ لي لعودةً وعودةً، الحذرَ الحذرَ، وما خَلَقَ الله تعالى من أهل بيتٍ ولا مدرٍ ولا شعرٍ ولا وبرٍ في برٍّ

(١) التيسير ص١٣٢، والنشر ١/ ٣٧٣.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٠.

ولا بحرٍ إلا وأنا أتصفَّحُهم فيه كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرَّاتٍ، حتى إنّي لأَعْرِفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد إني لا أقدرُ أقبضُ روحَ بعوضةٍ حتى يكون الله تبارك وتعالى الذي يأمر بقَبْضِه[1]. وأخرج نحوه الطبرانيُّ وأبو نعيم وابنُ منده[2].

ونسبتُه إليه عزَّ وجلَّ في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] باعتبار أنَّ أفعال العباد كلَّها مخلوقةٌ له جلَّ وعلا لا مدخل للعباد فيها بسوى الكَسْبِ كما يقوله الأشاعرة، أو باعتبارِ أنَّ ذلك بإذنه تعالى ومشيئته جلَّ شأنُه، ونسبتُه إلى الرسل في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وإلى الملائكة في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] لِمَا أنَّ مَلَكَ الموت لا يستقلُّ به، بل له أعوانٌ كما جاء في الآثار يعالجون نَزْعَ الروح، حتى إذا قَرُبَ خروجُها قبضها ملكُ الموت[3].

وقيل: المراد بملك الموت الجنس، وقال بعضُهم: إنَّ بعض الناس يتوفَّاهم ملكُ الموت وبعضُهم يتوفَّاهم الله عز وجل بنفسه؛ أخرج ابن ماجه عن أبي أمامة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى وكَّل ملكَ الموت عليه السلام بقبض الأرواح إلا شهداءَ البحر؛ فإنه سبحانه يتولَّى قبضَ أرواحهم»[4].

وجاء ذلك أيضاً في خبرٍ آخر يفيدُ أنَّ مَلَكَ الموت للإنس غيرُ مَلَكِ الموت للجنِّ والشياطين وما لا يعقل؛ أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٤، وهو في العظمة لأبي الشيخ (٤٧٥)، وإسناده منقطع، وروي مرفوعاً متصلاً ولكن بإسناد فيه متروك كما سيرد في التعليق الذي بعده.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٧٣، وهو في المعجم الكبير(٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبيِّ، وأخرجه هكذا مرفوعاً متصلاً أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني(٢٢٥٤)، والبزار(٧٨٤)، وفي إسناده عمرو بن شمر، قال عنه الحافظ في الإصابة ٣/ ٩٣: متروك الحديث.

(٣) أخرج الطبري ٩/ ٩٠، عند تفسير الآية (٦١) من سورة الأنعام عن ابن عباس قال: إن لملَكِ الموت أعواناً من الملائكة. وأخرج عن قتادة قال: يلي قبضها الرسل، ثم يدفعونها إلى ملك الموت. وينظر حديث أبي هريرة في سنن النسائي ٤/ ٨-٩، وفيه: «إذا حُضِر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية...» الحديث.

(٤) سنن ابن ماجه (٢٧٧٨)، وضعفه البوصيري في الزوائد ٣/ ١٥٩.

وكّل ملكُ الموت عليه السلام بقبض أرواح المؤمنين، فهو الذي يلي قَبْضَ أرواحهم، ومَلَكٌ في الجنِّ، ومَلَكٌ في الشياطين، ومَلَكٌ في الطير والوحشِ والسباع والحيتان والنمل، فهم أربعةُ أملاكٍ، والملائكةُ يموتون في الصعقة الأولى، وإنَّ ملك الموت يلي قَبْضَ أرواحهم ثم يموتُ، وأما الشهداءُ في البحر فإنَّ الله تعالى يلي قَبْضَ أرواحهم لا يَكِلُ ذلك إلى مَلَكِ الموت بكرامتهم عليه سبحانه[1].

والذي ذهب إليه الجمهورُ أنَّ ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحدٌ، وهو عزرائيل، ومعناه: عبد الله فيما قيل، نعم له أعوانٌ كما ذكرنا، وخبرُ الضحاك عن ابن عباس اللهُ تعالى أعلمُ بصحته.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

ومناسبةُ هذه الآية لِمَا قبلها ـ على ما ذكرنا في توجيه الإضراب ـ ظاهرةٌ؛ لأنهم لمَّا جَحَدوا لقاء ملائكة ربِّهم عند الموت وما يكون بعده، ذُكر لهم حديثُ توفِّي ملك الموت إياهم إيماءً إلى أنهم سيلاقونه، وحديثُ الرجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء.

وأمَّا على ما قيل فوجهُ المناسبةِ أنهم لمَّا أنكروا البعثَ والمعادَ ردَّ عليهم بما ذكر لتضمُّن قوله تعالى: (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) البعثَ، وزيادةُ ذِكْرِ توفِّي ملكِ الموت إياهم وكونه موكلاً بهم لتوقُّفِ البعث على وفاتهم، ولتهديدهم وتخويفهم، وللإشارة إلى أنَّ القادر على الإماتة قادرٌ على الإحياء.

وقيل: إنَّ ذلك لردِّ ما يُشْعِرُ به كلامُهم من أنَّ الموت بمقتضى الطبيعة، حيث أسندوه إلى أنفسهم في قولهم: (أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ) فليس عندهم بفعلِ الله تعالى ومباشرةِ ملائكته. ولا يخفى بعدُه.

وأبعدُ منه ما قيل في المناسبة: إنَّ عزرائيل وهو عبدٌ من عبيده تعالى إذا قدر على تخليص الروح من البدن مع سريانِها فيه سريانَ ماء الورد في الورد، والنارِ في

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٣، وفيه: لكرامتهم، بدل: بكرامتهم. ووقع في الأصل و(م): ابن جويبر، وهو خطأ. وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

الجمر، فكيف لا يقدر خالقُ القوى والقُدَرِ جلَّ شأنُه على تمييز أجزائهم المختلطة بالتراب، وكيف يستبعد البعث مع القدرة الكاملة له عزَّ وجل، لِمَا أنَّ ذلك السريان مما خفي على العقلاء حتى أنكره بعضُهم، فكيف بجهلة المشركين. فتأمل.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ ﷺ: «تَرْجِعون» بالبناء للفاعل[1].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون: «أئذا ضَلَلْنا في الأرض»، أو جنسُ المجرمين وهم من جملتهم ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ مُطْرِقُوها من الحياء والخِزْي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حين حسابِهم؛ لِمَا يَظهَرُ من قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «نكسوا رؤوسَهم» فعلاً ماضياً ومفعولاً[2].

﴿رَبَّنَآ﴾ بتقدير القول الواقع حالاً، والعاملُ فيه «ناكسوا»، أي: يقولون ربَّنا.. إلخ، وهو أَوْلَى من تقدير: يستغيثون بقولهم: ربَّنا.

﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: صِرْنا ممن يُبْصِرُ ويَسْمَعُ، وحَصَلَ لنا الاستعدادُ لإدراك الآياتِ المبصَرَةِ والآياتِ المسموعة، وكنَّا من قَبْلُ عُمياً صمّاً لا ندرِكُ شيئاً.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ حَسْبَما تقتضيه تلك الآيات. وهذا ـ على ما قيل ـ ادِّعاءٌ منهم لصحة مُشْعِري البصر والسمع.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ استئنافٌ لتعليل ما قبله. وقيل: استئنافٌ لم يُقْصَدْ به التعليلُ. وعلى التقديرين هو متضمِّنٌ لادِّعائهم صحةَ الأفئدة، والاقتدارَ على فَهْمِ معاني الآيات والعملِ بما يوجبها، وفيه من إظهار الثبات على الإيقان وكمالِ رغبتهم فيه ما فيه، وكأنه لذلك لم يقولوا: أبصرنا وسمعنا وأيقنَّا فارْجعْنا.. إلخ. ولعل تأخير السمع لأنَّ أكثر العمل الصالح الموعودِ يترتَّبُ عليه دون البصر، فكان عدمُ الفصل بينهما بالبصر أولى.

ويجوزُ أن يقدَّر لكلٍّ من الفعلين مفعولٌ مناسبٌ له مما يبصرونه ويسمعونه، بأن يقال: أبصرنا البعثَ الذي كنَّا نُنْكِرُه، وما وَعَدْتَنا به على إنكاره، وسمعنا منك

---

(١) البحر ٧/ ٢٠٠، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٠٨.

(٢) البحر ٧/ ٢٠١.

ما يدلُّ على تصديق رسلك عليهم السلام، ويراد به نحوُ قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا الإخبارُ الصريح بلفظ: إن رسلي صادقون، مثلاً.

أو يقال: أبصرنا البعثَ وما وعَدْتَنا به، وسمعنا قولَ الرسل، أي: سمعناه سَمْعَ طاعةٍ وإذعانٍ.

أو يقال: أَبْصَرْنا قُبْحَ أعمالِنا التي كنَّا نراها في الدنيا حَسَنةً، وسمعنا قولَ الملائكة لنا: إنَّ مردَّكم إلى النار.

وقيل: أرادوا: أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم حين كنَّا في الدنيا. أو: أبصرنا آياتِكَ التكوينيةَ وسمعنا آياتِكَ التنزيليةَ في الدنيا، فلك الحجةُ علينا وليس لنا حجةٌ فارْجِعْنا.. إلخ. ولا يَخْفَى حالُ هذا القيل.

وعلى سائر هذه التقادير وجهُ تقديم الإبصار على السماع ظاهرٌ.

و«لو» هي التي سمَّاها غيرُ واحدٍ امتناعيةً، وجوابُها محذوفٌ تقديره: لرأيتَ أمراً فظيعاً لا يقادَرُ قَدْرُه. والخطاب في «ترى» لكلِّ أحدٍ ممَّن يصحُّ منه الرؤيةُ؛ إذ المرادُ بيانُ كمال سوء حالهم، وبلوغِها من الفظاعة إلى حيث لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها بِراءٍ دون راءٍ ممَّن اعتاد مشاهدةَ الأمور البديعة والدَّواهي الفظيعة، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرؤيةُ يتعجَّبُ من هولها وفظاعتِه. وقيل: لأنَّ القَصْدَ إلى بيان أنَّ حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنعُ خفاؤها البتةَ فلا يختصُّ برؤيتها راءٍ دون راءٍ. والجوابُ المقدَّر أوفقُ بما ذُكر أوَّلاً. والفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، فلا يقدَّر له مفعولٌ، أي: لو تَكُنْ منك رؤيةٌ في ذلك الوقت لرأيتَ أمراً فظيعاً.

وجوِّز أن يكون الخطابُ خاصّاً بسيد المخاطبين ﷺ، و«لو» للتمنِّي، كأنه قيل: ليتك ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم لِتَشْمَتَ بهم، وحُكْمُ التمنِّي منه تعالى حُكْمُ الترجِّي، وقد تقدَّم، ولا جوابَ لها حينئذٍ عند الجمهور. وقال أبو حيان وابن مالك: لا بدَّ لها من الجواب، استدلالاً بقول مهلهل في حرب البسوس:

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كليبٍ فيُخْبَرَ بالذَّنائب أيُّ زِيرِ

بيومِ الشَّعْثَمينِ[1] لقَرَّ عيناً وكيف لقاءُ مَن تحت القبورِ[2]

فإنَّ «لو» فيه للتمنِّي بدليلِ نصبِ «فيخبر» وله جوابٌ وهو قوله: لقَرَّ.

ورُدَّ بأنها شرطيةٌ، و«يخبرَ» عطفٌ على مصدرٍ متصيَّدٍ من «نبش»، كأنه قيل: لو حصل نبشٌ فإخبارٌ. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

وقال الخفاجيُّ[3] عليه الرحمة: لو قيل: إنها لتقدير التمنِّي معها كثيراً أُعطيت حُكْمَه، واستُغْني عن تقدير الجواب فيها إذا لم يذكر كما في الوصلية، ونُصب جوابها، كان أسهل مما ذكر.

وجوِّز أن يقدَّر لـ «ترى» مفعولٌ دلَّ عليه ما بعدُ، أي: لو ترى المجرمين أو لو ترى نَكْسَهم رؤوسَهم.

والمضيُّ في «لو» الامتناعية و«إذ» لأنَّ إخباره تعالى عمَّا تحقَّق في عِلْمِه الأزلي ـ لتحقُّقِه ـ بمنزلة الماضي، فيُستعمل فيه ما يدلُّ على المُضيِّ مجازاً كـ «لو» و«إذ».

هذا ومن الغريب قولُ أبي العباس في الآية: المعنى: قل يا محمد للمجرم:

---

(١) جاء في هامش الأصل: قول مهلهل: بيوم الشعثمين، لم يفسروه، والظاهر أنه موضع كانت به وقعة، قاموس. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) البحر ٧/ ١٣٧، ونقل المصنف قوله وقول ابن مالك بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٥١، والبيتان في الأصمعيات ص١٥٤، والكامل للمبرد ٢/ ٧٤٠، وأمالي القالي ٢/ ١٣١، ومغني اللبيب ص٣٥٢، ومعجم البلدان ٣/ ٨. وفيه: سوق الذنائب: قرية دون زبيد من أرض اليمن. وقال المبرد: يقال: فلانٌ زير نساء، إذا كان صاحبَ نساء، وكان كليب يقول: إن مهلهلاً زير نساء لا يدرك بثأر، ورَفَع أيّاً بالابتداء والخبر محذوف، فكأنه قال: أيُّ زير أنا في هذا اليوم. وقال البغدادي في شرح أبيات المغني ٥/ ٧١: الباء في «بيوم الشعثمين» متعلقة بمحذوف صفة لزير، ويوم الشعثمين هو يوم واردات ـ وهو اسم موضع التقت فيه تغلب وبكر وظفرت فيه تغلب ـ وفيه حذف مضاف، أي: يوم قَتْلِ الشعثمين، وهما شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة. ثم ذكر فيهما وفي اسمهما أقوالاً غير ذلك، ثم قال: وقصَّر صاحب القاموس في قوله: وقول مهلهل: بيوم الشعثمين، لم يفسِّروه، والظاهر أنه موضعٌ كانت به وقعة. اهـ.

(٣) في الحاشية ٧/ ١٥١، وما قبله منه.

ولو ترى، وقد حكاه عنه أبو حيان ثم قال: رأى أنَّ الجملة معطوفةٌ على «يتوفَّاكم» داخلةٌ تحت «قل» السابق، ولذا لم يَجْعَلِ الخطابَ فيه للرسول ﷺ[1]. انتهى كلامُه فلا تغفل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقدَّرٌ بقولٍ معطوفٍ على ما قدِّر[2] قبل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ إلخ، وهو جوابٌ لقولهم: «ارْجِعْنا» يفيدُ أنهم لو أُرْجِعوا لعادوا لِمَا نُهوا عنه لسوء اختيارهم، وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى إعطاءَهم الهدى، أي: ونقول: لو شئنا، أي: لو تعلَّقتْ مشيئتُنا تعلُّقاً فعلياً بأنْ نُعطيَ كلَّ نفسٍ من النفوس البرَّة والفاجرة هداها، أي: ما تهتدي به إلى الإيمان والعملِ الصالح ـ وفسَّره بعضُهم بنفس الإيمان والعملِ الصالح، والأولُ أَوْلَى، وأما تفسيرُه بما سأله الكفرةُ من الرجوع إلى الدنيا، أو بالهداية إلى الجنة، فليس بشيءٍ ـ لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دارُ الكَسْبِ، وما أخَّرناه إلى دار الجزاء.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: ثَبتَ وتحقَّق قولي وسَبَقَتْ كلمتي حيث قلتُ لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥] وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ كما يلوِّحُ به تقديمُ الجِنَّة على الناس، فإنه في الخطاب لإبليس مقدَّمٌ، وتقديمُه هناك لأنه الأوْفَقُ لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديمُ في الموضعين لأنَّ الجهنَّميين من الجِنَّة أكثر.

ويُعلم مما ذكرنا وجهُ العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا) إلى ضمير الوحدة في قوله جل وعلا: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) وذلك لأنَّ ما ذُكر إشارةٌ إلى ما وقع في الردِّ على اللعين، وقد وقع فيه القولُ والإملاء مسنَدَين إلى ضمير الوحدة؛ ليكون الكلام على طرز (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ) في توحيد الضمير.

(١) البحر ٧/ ٢٠٠، وأبو العباس هو المبرد.
(٢) في (م): على مقدَّرٍ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٨٣.

وقد يقال: ضميرُ العظمة أوفقُ بالكثرة الدالِّ عليها «كل نفس»، والضمير الآخر أوفقُ بما دون تلك الكثرة الدالِّ عليه «من الجنة والناس».

أو يقال: إنه وحَّد الضمير في الوعيد لِمَا أنَّ المعنيَّ به المشركون، فكأنه أخرج الكلام على وجهٍ لا يَتوهَّم فيه متوهِّمٌ نوعاً من أنواع الشركة أصلاً، أو أخرج على وجهٍ يلوِّحُ بما عَدَلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبوه ـ مما أَوْجَبَ لهم الوعيدَ ـ من الشرك.

أو يقال: وحَّد الضمير في «لأملأن» لأن الإملاء لا تعدُّد فيه، فتوحيد الضمير أوفقُ به، ويقال نظيرُ ذلك في «حقَّ القول منِّي»، والإيتاء يتعدَّد بتعدُّد المؤتى، فضميرُ العظمة أوفقُ به، ويقال نظيره في «شئنا»، فتدبر.

ولا يلزمُ من قوله تعالى: (أَجْمَعِينَ) دخولُ جميع الجنِّ والإنس فيها ـ وأما قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فالورودُ فيه غيرُ الدخول، وقد مرَّ الكلام في ذلك ـ لأنَّ «أجمعين» تفيدُ عمومَ الأنواع لا الأفراد، فالمعنى: لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً، كـ: ملأتُ الكيسَ من الدراهم والدنانير جميعاً، كذا قيل. ورُدَّ بأنه لو قُصِدَ ما ذُكِرَ لكان المناسبُ التثنيةَ دون الجمع، بأن يقال: كليهما، واستُظْهِرَ أنها لعموم الأفراد، والتعريفُ في «الجِنَّة والناس» للعهد، والمرادُ عصاتُهما، ويؤيِّده الآيةُ المتضمِّنةُ خطابَ إبليس.

وحاصل الآية: لو شئنا إيتاءَ كلِّ نفسٍ هداها لآتيناها إياه، لكنْ تحقَّقَ القولُ منِّي لأملأنَّ جهنَّم.. إلخ، فبمَوْجِبِ ذلك القولِ لم نشأ إعطاء الهدى على العموم، بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم، حيث صرفتُم اختياركم إلى الغيِّ بإغوائه، ومشيئتُنا لأفعال العباد منوطةٌ باختيارهم إياها، فلمَّا لم تختاروا الهدى واخترتُم الضلالَ لم نشأ إعطاءه لكم، وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البَرَرة، وهم المعنيون بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الآيةَ. فيكون مناطُ عدم مشيئته تعالى إعطاءَ الهدى في الحقيقة سوءَ اختيارهم لا تحقُّقَ القول، وإنما قيِّدت المشيئةُ بما مرَّ من التعلُّق الفعليِّ بأفعال العباد عند حدوثها لأنَّ المشيئةَ الأزليةَ من حيث تعلُّقُها بما سيكون من أفعالهم إجمالاً متقدِّمةٌ على تحقُّق كلمة العذاب، فلا يكون عدمُها منوطاً بتحقُّقها، وإنما مناطُه عِلْمُه تعالى أنه

لا يَصْرِفُ[1] اختيارهم فيما سيأتي إلى الغيِّ وإيثارهم له على الهدى، فلو أُريدت هي من تلك الحيثية لاستُدْرِكَ بعدمها بأنْ يقال: ولكن لم نشأ، ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] كذا قال بعض الأجلَّة.

وقد يقال: يجوز أن يراد بالمشيئة المشيئةُ الأزلية من حيث تعلُّقُها بما سيكون من أفعالهم، ويرادَ بالقول علمُ الله تعالى، فإنه وكذا كلمةُ الله سبحانه يُطْلَقُ على ذلك كما قال الراغب، وذَكَر منه قولَه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦][2] وحاصلُ المعنى: لو شئنا في الأزل إيتاءَ كلِّ نفسٍ هداها في الدنيا لآتيناها إياه، ولكنْ ثَبَتَ وتحقَّق عِلْمي أزلاً بتعذيب العصاة، فبموجب ذلك لم نشأ؛ إذ لابدَّ من وقوع المعلوم على طبق العلم لئلَّا يلزمَ انقلابُ العلم جهلاً، ووقوعُ ذلك يستدعي وجودَ العصاة؛ إذ تعذيبُ العصاة فرعُ وجودهم، ومشيئةُ إيتاء الهدى كلَّ نفسٍ تستلزمُ طاعةَ كلِّ نفس ضرورةَ استلزامِ العلَّة للمعلول، فيلزمُ أن تكون النفسُ المعذَّبة عاصيةً طائعةً وهو محالٌ، وهذا المحالُ جاء من مشيئته إيتاءَ كلِّ نفسٍ هُداها مع علمه تعالى بتعذيب العصاة، فإمَّا أنْ ينتفي العلمُ المذكور وهو محالٌ؛ لأنَّ تعلُّق علمه سبحانه بالمعلوم على ما هو عليه ضروريٌّ، فتعيَّن انتفاءُ المشيئة لذلك ويَرجِعُ[3] هذا بالآخرة إلى أنَّ سبب انتفاء مشيئته إيتاءَ الهدى للعصاة سوءُ ما هم عليه في أنفسهم؛ لأن المشيئة تابعةٌ للعلم والعلمُ تابعٌ للمعلوم في نفسه، فعلمُه تعالى بتعذيب العصاة يستدعي علمَه سبحانه إياهم بعنوان كونهم عصاةً، فلا يشاؤهم جلَّ جلالُه إلا بهذا العنوان الثابتِ لهم في أنفسهم، ولا يشاؤهم سبحانه على خلافه لأنَّ مشيئته تعالى إياهم كذلك تستدعي تعلُّق العلم بالشيءِ على خلاف ما هو عليه في نفس الأمر، وليس ذلك علماً.

---

(١) كذا في الأصل و(م): أنه لا يصرف، ولعله مصحف عن: أزلاً بصرف، كما في تفسير أبي السعود ٧/ ٨٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) مفردات الراغب (قول).

(٣) في (م): ويرجح، وهو تصحيف.

ويمكن أن يبقى العلمُ على ظاهره ويقال: إنه تعالى لم يشأ هداهم لأنه جلَّ وعلا قال لإبليس عليه اللعنة أنه سبحانه يعذِّب أتباعه ولا بدّ، ولا يقول تعالى خلافَ ما يعلم، فلا يشاء تبارك وتعالى خلافَ ما يقول، ويرجع بالآخرة أيضاً إلى أنه تعالى لم يشأ هداهم لسوء ما هم عليه في أنفسهم بأدنى تأمُّلٍ.

ومآلُ الجواب على التقريرين: لا فائدةَ لكم في الرجوع؛ لسوء ما أنتم عليه في أنفسكم. ولا يخفى أنَّ ما ذكر مبنيٌّ على القول بالأعيان الثابتة، وأنَّ الشقيَّ شقيٌّ في نفسه، والسعيد سعيدٌ في نفسه، وعلمُ الله تعالى إنما تعلَّق بهما على ما هما عليه في أنفسهما، وأنَّ مشيئته تعالى إنما تعلَّقتْ بإيجادهما حَسْبَما عَلِمَ جلَّ شأنُه، فوُجِدا في الخارج بإيجاده تعالى إياهما على ما هما عليه في أنفسهما، فإذا تمَّ هذا تمَّ ذاك، وإلا فلا.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يُعْرِبُ عنه ما قبلُ من نفي الرجع إلى الدنيا، أو على قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ إلخ، ولعل هذا أسرعُ تبادراً، وجَعَلَها بعضهم واقعةً في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا يئستُم من الرجوع، أو: إذا حقَّ القول، فذوقوا، وجوَّز كونَها تفصيليةً، والأمرُ للتهديد والتوبيخ.

والباء في قوله سبحانه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ للسببية، و«ما» مصدريةٌ، و«هذا» صفةُ «يوم» جيء به للتهويل، وجوَّز كونُه مفعولَ «ذوقوا» وهو إشارةٌ إلى ما هم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغمِّ، وعلى الأول يكون مفعولُ «ذوقوا» محذوفاً، والوصفيةُ أظهرُ، أي: فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وتَرْكِكم التفكُّرَ فيه والتزوُّدَ له بالكلِّية. وهذا تصريحٌ بسبب العذاب من قِبَلِهم فلا ينافي أن يكون له سببٌ آخرُ حقيقياً كان أو غيرَه، والتوبيخُ به من بين الأسباب لظهوره وكونه صادراً منهم لا يَسَعُهم إنكارُه. والمراد بنسيانهم ذلك تركُهم التفكُّرَ فيه والتزوُّدَ له كما أشرنا إليه، وهو بهذا المعنى اختياريٌّ يوبَّخ عليه، ولا يكاد يصحُّ إرادةُ المعنى الحقيقيِّ وإن صحَّ التوبيخُ عليه باعتبار تعمُّدِ سببه من الانهماك في اتِّباع الشهوات.

ومثلُه في كونه مجازاً النسيانُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في العذاب تَرْكَ المنسيِّ بالمَرَّةِ. وجَعَلَ بعضُهم هذا من باب المشاكلة، ولم يَعْتَبِرِ كونَ الأول مجازاً مانعاً منها، قيل: والقرينةُ على قَصْدِ المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم

من جنس العمل، فهو على حدِّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ تكريرٌ للتأكيد والتشديدِ، وتعيينِ المفعولِ المُبْهَمِ للذوق، والإشعارِ بأنَّ سببه ليس مجرَّدَ ما ذكر من النسيان، بل له أسبابٌ أُخَرُ من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرِّينَ عليها في الدنيا، ولمَّا كان فيه زيادةٌ على الأول حَصَلتْ به مغايرتُه له، استحقَّ العطفَ عليه. ولم يُنْظَم الكلُّ في سلكٍ واحدٍ للتنبيه على استقلال كلٍّ من النسيان وما ذُكر في استيجاب العذاب.

وفي إبهام المذوق أولاً وبيانِه ثانياً بتكرير الأمر، وتوسيطِ الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما، من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى، والإشعارِ بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين مَن يستحقُّه بطريق القَصْر، كأنه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا الدالَّةِ على شؤوننا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو أرجعناكم إلى الدنيا، وإنما يؤمن ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وُعظوا ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا﴾ آثِرَ ذي أثيرٍ[1]، من غير تردُّدٍ ولا تلعثُم، فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقتْ به من الوعد والوعيد، أي: سقطوا ساجدين تواضعاً لله تعالى وخشوعاً وخوفاً من عذابه عزَّ وجلَّ.

قال أبو حيان: هذه السجدة من عزائم سجود القرآن. وقال ابن عباس: السجودُ هنا الركوع. ورُوي عن ابن جريجٍ ومجاهدٍ أنَّ الآية نزلت بسبب قومٍ من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصلاةُ خرجوا من المسجد، فكأنَّ الركوع يقصدُ من هذا، ويلزمُ على هذا أن تكون الآيةُ مدنيةً، ومِن مذهب ابن عباس أنَّ القارئ لآية السجدة يركعُ، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤][2]. اهـ. ولا يخفى ما في الاستدلال من المقال.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ونزَّهوه تعالى عند ذلك عن كلِّ ما لا يليقُ به

---

(١) أي: أوّلَ كلِّ شيء. الصحاح (أثر).
(٢) البحر ٧/ ٢٠٢.

سبحانه من الأمور التي من جملتها العجزُ عن البعث ملتبسين بحَمْدِه تعالى على نعمائه جلَّ وعلا التي أجلُّها الهدايةُ بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها، فالحمدُ في مقابلة النعمة، والباءُ للملابَسةِ والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلَّة التسبيح والتحميد، بأنهم[1] يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيته تعالى لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥﴾ عن الإيمان والطاعةِ كما يفعلُ مَن يصرُّ مستكبراً كأنْ لم يَسْمَعِ الآيات، والجملةُ عطفٌ على الصلة أو حالٌ من أحد ضميري «خرُّوا» و«سبَّحوا»، وجوِّز عطفُها على أحد الفعلين.

وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان بقية محاسنهم، وجوِّز أن تكون حاليةً أو خبراً ثانياً للمبتدأ. والتجافي: البعدُ والارتفاع. والجُنوبُ جمع جنبٍ: الشقوق، وذكر الراغب أنَّ أصل الجَنْبِ الجارحةُ، ثم يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو اليمين والشمال[2].

و«المضاجع» جمعُ المضجع: أماكنُ الاتِّكاء للنوم، أي: تتنحَّى وترتفعُ جنوبُهم عن مواضع النوم، وهذا كنايةٌ عن تَرْكِهم النومَ، ومثلُه قولُ عبد الله بن رواحة يَصِفُ النبيَّ ﷺ:

نبيٌّ تَجافَى جَنْبُه عن فراشه ... إذا استثقَلَتْ بالمشركين المضاجعُ[3]

والمشهورُ أنَّ المراد بذلك التجافي القيامُ لصلاة النوافل بالليل، وهو قول الحسن ومجاهدٍ ومالكٍ والأوزاعيِّ وغيرهم، وفي الأخبار الصحيحة ما يشهدُ له؛ أخرج أحمدُ، والترمذيُّ وصحَّحه، والنسائيُّ، وابنُ ماجه، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفرٍ،

---

(١) في تفسير أبي السعود ٧/ ٨٤ (والكلام منه): وبأنهم.

(٢) مفردات الراغب (جنب).

(٣) البيت في صحيح البخاري (١١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برواية:

يبيت يجافي جنبه..........

فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبيَّ الله أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنة ويباعدُني من النار؟ قال: «لقد سألْتَ عن عظيم، وإنه يسيرٌ على مَن يسَّره الله تعالى عليه، تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت» ثم قال: «أَلَا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ، وصلاةُ الرجل في جوف الليل» ثم قرأ: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ) حتى بلغ (يَعْمَلُونَ)، الحديث[1].

وقال أبو الدرداء وقتادةُ والضحاك: هو أن يصلِّيَ الرجل العشاءَ والصبحَ في جماعةٍ[2].

وعن الحسن وعطاء: هو أن لا ينامَ الرجلُ حتى يصلِّي العشاء؛ أخرج الترمذيُّ وصحَّحه وابن جرير وغيرُهما عن أنس قال: إنَّ هذه الآية: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ) نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى العَتَمة[3].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال فيها: نزلت فينا معاشرَ الأنصار، كنَّا نصلِّي المغربَ فلا نرجعُ إلى رحالنا حتى نصلِّيَ العشاءَ مع النبيِّ ﷺ[4].

وقيل: هو أن يصلِّي الرجل المغربَ ويصلِّي بعدها إلى العشاء، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» وابن عديٍّ وابنُ مردويه عن مالك بن دينار قال: سألتُ أنس بنَ مالكٍ عن هذه الآية (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ) قال: كان قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأوَّلين يصلُّون المغربَ ويصلُّون بعدها إلى عشاءِ الآخرة، فنزلت هذه الآيةُ فيهم[5].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٠١٦)، وسنن الترمذي (٢٦١٦)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٣٠)، وسنن ابن ماجه (٣٩٧٣)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١٤، والمستدرك ٢/ ٤١٢-٤١٣، والشعب (٣٣٤٩)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٧٥.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، والبغوي ٣/ ٥٠٠، والقرطبي ١٧/ ٣٠، وجاء عندهم جميعاً بدل قتادة: عبادة، وهو عبادة بن الصامت ﷺ كما صرح بذلك البغوي.

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١١.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٤.

(٥) الكامل ٢/ ٦١٢، وعزاه لعبد الله بن أحمد وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٥. وفي إسناده الحارث بن وجيه، قال عنه يحيى كما ذكر ابن عدي: ليس حديثه بشيء، وقال النسائي: ضعيف.

وقال قتادة وعكرمة: هو أن يصلِّي الرجل ما بين المغرب والعشاء؛ واستُدلَّ له بما أخرجه محمد بن نصر عن عبد الله بن عيسى قال: كان ناس من الأنصار يصلون ما بين المغرب والعشاء فنزلت فيهم: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ)[١].

وأخرج ابن جريرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: تتجافَى جنوبُهم لذكر الله تعالى، كلَّما استيقظوا ذكروا الله عز وجل، إمَّا في الصلاة وإما في قيامٍ أو قعودٍ أو على جنوبهم، لا يزالون يذكرون الله تعالى[٢]. ورَوَى نحوه هو ومحمد بن نصر عن الضحاك[٣].

والجمهورُ عوَّلوا على ما هو المشهور، وفي فضل التهجُّد ما لا يُحصى من الأخبار، وأفضلُه على ما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ ما كان في الأسحار.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حالٌ من ضمير «جنوبهم» وقد أُضيف إليه ما هو جزءٌ، وجوِّز على احتمال كون جملة «تتجافى» إلخ حاليةً أن تكون حالاً ثانيةً ممَّا جُعِلَتْ تلك حالاً منه، وعلى احتمال كونها خبراً ثانياً للمبتدأ أن تكون خبراً ثالثاً، وجوِّز كونها مستأنفةً. والظاهرُ أنَّ المراد بدعائهم ربَّهم سبحانه المعنى المتبادر، وقيل: المراد به الصلاة.

﴿خَوْفًا﴾ أي: خائفين من سخطه تعالى وعذابه عزَّ وجلَّ، وعدمِ قبول عبادتهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته تبارك وتعالى، فالمصدران حالان من ضمير «يدعون»، وجوِّز أن يكونا مصدرين لمقدَّرٍ، أي: يخافون خوفاً ويطمعون طمعاً، وتكونُ الجملة حينئذٍ حالاً، وأن يكونا مفعولاً له، ولا يخفى أنَّ الآية على الحالية أمدحُ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إياه من المال ﴿يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوه الخير ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ من النفوس، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ فضلاً عمَّن عَدَاهم، فإنَّ النكرة في سياق النفي تعمُّ. والفاءُ سببيةٌ أو فصيحةٌ، أي: أُعْطُوا فوق رجائِهم فلا تعلمُ نفس ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ أي: لأولئك الذين عدِّدَتْ نعوتُهم الجليلة

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٥، وأخرج نحوه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢)، والطبري ١٨/ ٦٠٩-٦١١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦١٣.
(٣) الدر المنثور ٥/ ١٧٦، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦١٢.

﴿مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: مما تَقَرُّ به أعينٌ، وفي إضافة القُرَّةِ إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيهٌ على أنَّ ما أخفي لهم في غايةِ الحسن والكمال.

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر، بَلْهَ ما أَطلَعْتُكم عليه، اقرؤوا إن شئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)»[1].

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ، والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوبٌ في التوراة: لقد أعدَّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لم تَرَ عينٌ ولم تَسْمَعْ أذنٌ ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلمُ مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ. وإنه لفي القرآن: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[2].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: جُوزوا جزاءً بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة، فـ «جزاء» مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، والجملةُ مستأنفةٌ، وجوِّز جَعْلُها حاليةً.

وقيل: يجوزُ جَعْلُه مصدراً مؤكِّداً لمضمون الجملة المتقدِّمة.

وقيل: يجوز أن يكون مفعولاً له لقوله تعالى: «لا تعلم نفس» على معنى: منعتُ العلمَ للجزاء، أو لـ «أُخْفي» فإنَّ إخفاءه لعلوِّ شأنه.

وعن الحسن أنه قال: أَخْفَى القومُ أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله تعالى لهم ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ. أي: أَخْفَى ذلك ليكون الجزاءُ من جنس العمل. وفي «الكشف» أنَّ هذا يدلُّ على أنَّ الفاء في قوله تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ) رابطةٌ للَّاحق بالسابق، وأصلُه: فلا يعلمون، والعدول لتعظيم الجزاء، وعدمُ ذكر الفاعل في

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٨٠)، وصحيح مسلم (٢٨٢٤)، وقوله: بله ما أطلعتكم عليه، أي: دع ذلك فإنه سهل في جنب ما ادُّخر لهم. وجاء في رواية البخاري: من بَلْهِ، أي: من غير. ينظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٦٦، وفتح الباري ٨/ ٥١٦-٥١٧، وحاشية الشهاب ٧/ ٥٣.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٦١٧، والمعجم الكبير (٩٠٣٩)، والمستدرك ٢/ ٤١٤، وعزاه للفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٧٦.

«أُخفي» ترشيحٌ له؛ لأنَّ جازِيَهُ مَن هو العظيمُ وحده فلا يذهب وَهلٌ إلى غيره سبحانه. اهـ فتأمل.

وقرأ حمزة ويعقوب والأعمش: «أُخْفيْ» بسكون الياء فعلاً مضارعاً للمتكلِّم[1]، وابنُ مسعود: «نخفي» بنون العظمة[2]. والأعمش أيضاً: «أَخْفَيْتُ» بالإسناد إلى ضمير المتكلِّم وحده[3]، ومحمد بن كعب: «أَخْفَى» فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل[4].

و«ما» في جميع ذلك اسمٌ موصولٌ مفعولُ «تعلم»، والعلمُ بمعنى المعرفة، والعائدُ الضميرُ المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور، وضميرُه محذوفٌ على غيرها.

وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون «ما» استفهاميةً، وموضعُها رفعٌ بالابتداء و«أُخفيَ لهم» خبرُه على قراءةِ مَن فتح الياء، وعلى قراءة مَن سكَّنها وجَعَل «أُخْفيْ» مضارعاً يكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أُخْفيْ»[5]. ويُعلم منه حالُها على سائر القراءات، وإذا كانت استفهاميةً يجوز أن يكون العلمُ بمعنى المعرفة، وأن يكون على ظاهره، فيتعدَّى لمفعولين تسدُّ الجملةُ الاستفهاميةُ مسدَّهما، وعلى كلٍّ من احتمالي الموصولية والاستفهامية فالإبهامُ للتعظيم.

وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعونٌ العقيلي: «من قرَّات» على الجمع بالألِفِ والتاء[6]، وهي روايةٌ عن أبي عمرو وأبي جعفر والأعمش[7]، وجمع

---

(١) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٢٠٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٢.

(٤) البحر ٧/ ٢٠٢.

(٥) الإملاء ٤/ ١٨٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٤، والبحر ٧/ ٢٠٢-٢٠٣. ووقع في الأصل و(م): والعقيلي. والصواب ما أثبتناه. وعون العقيلي له اختيار في القراءة، أخذ القراءة عرضاً عن نصر بن عاصم، وروى القراءة عنه المعلى بن عيسى. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٦٠٦.

(٧) البحر/٧ ٢٠٣ عن أبي جعفر والأعمش، والمشهور عن أبي عمرو وأبي جعفر الإفراد.

المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرَّة. والجارُّ والمجرور في موضع الحال.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أَبْعَدَ ظهور ما بينهما من التبايُنِ البيِّنِ يُتوهَّم كونُ المؤمن الذي حُكيت أوصافه الفاضلةُ كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه القبيحةُ العاطلة. وأصل الفسق: الخروجُ، من فَسَقَتِ الثمرةُ: إذا خرجتْ من قشرها، ثم استُعمل في الخروج عن الطاعة وأحكامِ الشرع مطلقاً، فهو أعمُّ من الكفر، وقد يخصُّ به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] وكما هنا لمقابلته بالمؤمن، مع ما ستسمعُه بعدُ إن شاء الله تعالى.

﴿لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ التصريحُ به ـ مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمَرَّة على أبلغ وجهٍ وآكَدِه ـ لزيادة التأكيد وبناءِ التفصيل الآتي عليه، والجمعُ باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها.

وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمنُ والكافر، والتثنيةُ جمعٌ.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ تفصيلٌ لمراتب الفريقين بعد نفي استوائهما، وقيل: بعد ذِكْرِ أحوالهما في الدنيا، وأضيفت الجنان إلى «المأوى» لأنها المأوى والمسكنُ الحقيقيُّ، والدنيا منزلٌ مرتَحَلٌ عنه لا محالةَ. وقيل: «المأوى» عَلَمٌ لمكانٍ مخصوص من الجنان[1] كعدن، وقيل: جنةُ المأوى؛ لِمَا روي عن ابن عباس أنها تأوي إليها أرواحُ الشهداء. وروي أنها عن يمينِ العرش. ولا يخفى ما في جَعْلِه عَلَماً من البُعْدِ، وأيّاً ما كان فلا يبعُدُ أن يكون فيه رمزٌ إلى ما ذكر من تَجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

وقرأ طلحة: «جنة المأوى» بالإفراد[2].

﴿نُزُلًا﴾ أي: ثواباً، وهو في الأصل ما يعدُّ للنازل من الطعام والشراب والصِّلة، ثم عمَّ كلَّ عطاءٍ، وانتصابُه على أنه حالٌ من «جنات»، والعاملُ فيه الظرفُ. وجوِّز أن يكون جمعَ نازلٍ فيكون حالاً من ضمير «الذين آمنوا».

---

(١) في الأصل: الجنات.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٨.

وقرأ أبو حيوة: «نُزْلاً» بإسكان الزاي[1]، كما في قوله:

وكنَّا إذا الجبَّارُ بالجيش ضافنا جَعَلْنا القنا والمرهَفاتِ له نُزْلا[2]

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ أي: بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، على أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ والباءُ سببية، وكونُ ذلك سبباً بمقتضَى فَضْلِه تعالى ووَعْدِه عزَّ وجلّ فلا ينافي حديثَ: «لا يدخلُ أحدكم الجنةَ بعمله»[3]. ويجوز أن تكون الباء للمقابلة والمعاوضةِ كعَلَى في نحو: بعتُكَ الدار على ألف درهمٍ، أي: فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أي: خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: فمسكنُهم ومحلُّهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ وذكر بعضهم أنَّ المأوى صار متعارفاً فيما يكون ملجأً للشخص ومستراحاً يستريح إليه من الحرِّ والبرد ونحوهما، فإذا أُريدَ هنا يكون في الكلام استعارةٌ تهكُّمية كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. وجوِّز أن يكون استعمال ذلك من باب المشاكلة؛ لأنه لمَّا ذكر في أحد القسمين: «فلهم جنات المأوى»، ذكر في الآخر: «فمأواهم النار».

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟﴾ استئنافٌ لبيان كيفية كونِ النار مأواهم، والكلامُ على حدِّ قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] على ما قيل، والمعنى: كلما شارَفوا الخروجَ منها وقرُبوا منه أُعيدوا فيها ودُفعوا إلى قعرها، فقد روي أنهم يضربُهم لهبُ النار فيرتفعون إلى أعلاها حتى إذا قرُبوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربُهم اللهبُ فيهوون إلى قعرها، وهكذا يُفعل بهم أبداً[4].

وقيل: الكلام على ظاهره إلا أنَّ فيه حذفاً، أي: كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا من معظمها أُعيدوا فيها، ويشيرُ إلى أنَّ الخروج من معظمها قولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ دون: إليها. وجوِّز أن يكون الكلام هنا عبارةً عن خلودهم فيها. وأيّاً ما كان لا منافاةَ بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

(١) البحر ٧/ ٢٠٣.
(٢) سلف ٥/ ٢٣٥.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤) و(٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) ذكر نحوه الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩ عن الحسن، والطبري ١٦/ ٤٩٨ دون نسبة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ تشديداً عليهم وزيادةً في غيظهم ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ على الاستمرار في الدنيا، وأُظهرت «النار» مع تقدُّمها قبلُ لزيادة التهديد والتخويف، وتعظيمِ الأمر.

وذكر ابنُ الحاجب في «أماليه» وجهاً آخر للإظهار، وهو أنَّ الجملة الواقعة بعد القول حكايةٌ لِمَا يقال لهم يومَ القيامة عند إرادتهم الخروجَ من النار، فلا يناسبُ ذلك وضعَ الضمير؛ إذ ليس القولُ حينئذٍ مقدَّماً عليه ذِكْرُ النار، وإنما ذَكَرَها سبحانه قبلُ إخباراً عن أحوالهم.

ونظر فيه الطيبيُّ(١) عليه الرحمةُ بأنَّ هذا القولَ داخلٌ أيضاً في حيِّز الإخبار؛ لعَطْفِه على «أُعيدوا» الواقعِ جواباً لـ «كلما»، فكما جاز الإضمارُ في المعطوف عليه جاز فيه أيضاً إن لم يُقْصَدْ زيادةُ التهديد والتخويف.

ورُدَّ بأنَّ المانع أنه حكايةٌ لِمَا يقال لهم يومَ القيامة، والأصل في الحكاية أن تكون على وفق المحكيِّ عنه دون تغييرٍ ولا إضمارٍ في المحكيِّ لعدم تقدُّم ذكر النار فيه.

وتعقِّب بأنه قد يناقَش فيه بأنَّ مراده أنه يجوز رعايةُ المحكيِّ والحكاية، وكما أنَّ الأصل رعايةُ المحكيِّ الأصلُ الإضمارُ إذا تقدَّم الذكرُ، فلا بدَّ من مرجِّحٍ.

وقال بعض المحققين: أراد ابن الحاجب أنَّ الإظهار هو المناسبُ في هذه الجملة نظراً إلى ذاتها ونظراً إلى سياقها؛ أما الأولُ فلأنها تقال من غير تقدُّم ذِكْرِ النار، وأما الثاني فلأنَّ سياق الآية للتهديد والتخويف وتعظيم الأمر، وفي الإظهار من ذلك ما ليس في الإضمار، وهذا بعيدٌ من أن يَرِدَ عليه نظرُ الطيبيِّ.

والإنصافُ أنَّ كلًّا من الإضمار والإظهار جائزٌ، وأنه رجَّح الإظهارَ اقتضاءُ السياق لذلك. ونُقل عن الراغب ما يدلُّ على أنَّ المقام في هذه الآية مقامُ الضمير، حيث ذُكر عنه أنه قال في «درة التنزيل»: إنه تعالى قال هاهنا: (ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ) وقال سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢] فذكَّر جلَّ وعلا هاهنا وأنَّث سبحانه هناك، والسرُّ في ذلك أنَّ

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤.

النار هاهنا وقعت موقعَ الضميرِ والضميرُ لا يوصف، فأُجري الوصفُ على العذاب المضافِ إليها وهو مذكَّر، وفي تلك الآية لم يَجْرِ ذكرُ النار في سياقها، فلم تقع النارُ موقعَ الضمير، فأُجْري الوصف عليها وهي مؤنَّثةٌ دون العذاب، فتأمل.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: الأقرب، وقيل: الأقل. وهو عذابُ الدنيا فإنه أقربُ من عذاب الآخرة وأقلُّ منه. واختُلف في المراد به؛ فروَى النسائيُّ وجماعةٌ وصحَّحه الحاكم عن ابن مسعود: أنه سنونَ أصابتهم[١]. ورُوي ذلك عن النخعيِّ ومقاتل.

ورَوَى الطبرانيُّ وآخرون وصحَّحه الحاكم عن ابن مسعود أيضاً أنه ما أصابهم يومَ بدر[٢]. وروي نحوُه عن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما بلفظ: هو القتلُ بالسيف نحو يوم بدر[٣].

وعن مجاهد: القتلُ والجوع.

وأخرج مسلم، وعبد الله بنُ أحمد في زوائد «المسند»، وأبو عوانة في «صحيحه»، وغيرُهم، عن أبي بن كعب أنه قال: هو مصائبُ الدنيا والرومُ والبطشةُ والدخان[٤]. وفي لفظ مسلم: أو الدخان[٥].

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس أنه قال: هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها[٦]. وفي رواية عنه وعن الضحاك وابن زيد بلفظ: مصائب الدنيا في الأنفس والأموال.

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١١٣٣١)، وعزاه للحاكم السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨.

(٢) المعجم الكبير (٩٠٣٨)، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٢٩، والمستدرك ٢/ ٤١٤.

(٣) البحر ٧/ ٢٠٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٠ بلفظ: القتل بالسيف صبراً.

(٤) مسند أحمد (٢١١٧٣)، وعزاه لأبي عوانة السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨، وسيأتي تخريجه عند مسلم، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٦٢٨، والحاكم ٤/ ٤٢٨. قوله: والروم، هي رواية مسلم والحاكم، وجاء في تفسير الطبري والدر: اللزوم، وفي مسند أحمد: اللزام، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

(٥) صحيح مسلم (٢٧٩٩)، وزاد: شعبة الشاك في البطشة أو الدخان. اهـ. وشعبة هو أحد رجال الإسناد.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٧٨.

وفي معناه ما أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال: سألتُ عبادة بن الصامت عن قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ الآيةَ، فقال: سألتُ رسول الله ﷺ عنها فقال ﷺ: «هي المصائبُ والأسقام والآصار، عذابٌ للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة» قلت: يا رسول الله، فما هي لنا؟ قال: «زكاةٌ وطَهورٌ»(١).

وفي روايةٍ عن ابن عباس أنه الحدود.

وأخرج هنَّاد عن أبي عبيدة أنه فسَّره بعذاب القبر(٢). وحكي عن مجاهدٍ أيضاً.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو عذابُ يوم القيامة كما روي عن ابن مسعود وغيره، وقال ابن عطية: لا خلافَ في أنه ذلك. وفي «التحرير» أنَّ أكثرهم على أنَّ العذاب الأكبر عذابُ يوم القيامة في النار. وقيل: هو القتلُ والسبي والأسر. وعن جعفر بن محمد رضي الله عنهما أنه خروج المهديِّ بالسيف(٣). انتهى. وعليهما يفسَّر العذابُ الأدنى بالسنين أو الأسقام، أو نحوِ ذلك مما يكون أدنى مما ذُكر. وعن بعض أهل البيت تفسيرُه بالدابة والدجَّال، والمعوَّل عليه ما عليه الأكثر.

وإنما لم يقل: الأصغر، في مقابلة «الأكبر»، أو: الأبعد، في مقابلة «الأدنى»؛ لأنَّ المقصود هو التخويفُ والتهديد، وذلك إنما يحصل بالقُرْبِ لا بالصِّغر، وبالكِبَر لا بالبُعْدِ؛ قاله النيسابوري ملخِّصاً له من كلام الإمام(٤). وكذا أبو حيان، إلا أنه قال: إنَّ الأدنى يتضمَّنُ الأصغر لأنه منقضٍ بموت المعذَّب، والأكبر يتضمَّنُ الأبعد لأنه واقعٌ في الآخرة، فحصلت المقابلةُ من حيث التضمُّنُ، وصرَّح بما هو آكَدُ في التخويف(٥).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لعل مَن بقي منهم يتوبُ؛ قاله ابن مسعود. وقال الزمخشريُّ: أو لعلهم يريدون الرجوعَ ويطلبونه، كقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ

---

(١) الدر المنثور ٥/١٧٨.
(٢) الزهد لهناد (٣٤٥).
(٣) نقل المصنف كلام ابن عطية وكلام صاحب التحرير عن البحر ٧/٢٠٣، ولم نقف على كلام ابن عطية في المحرر.
(٤) غرائب القرآن ٢١/٦٧، وينظر تفسير الرازي ٢٥/١٨٣-١٨٤.
(٥) البحر ٧/٢٠٣-٢٠٤.

صَٰلِحًا﴾ [السجدة:١٢] وسمِّيت إرادةُ الرجوع رجوعاً كما سمِّيت إرادةُ القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «يُرْجَعون» على البناء للمفعول[١]. انتهى.

وهو على ما حُكي عن مجاهدٍ ورُوي عن أبي عبيدة، فيتعلَّق «لعلهم» إلخ بقوله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ) كما في الأول، إلَّا أنَّ الرجوع هنالك التوبةُ، وهاهنا الرجوعُ إلى الدنيا، ويكون من باب: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص:٨] أو يكون الترجِّي راجعاً إليهم، ووجهُ دلالة القراءة المذكورة عليه أنه لا يصحُّ الحمل فيها على التوبة.

والظاهرُ التفسيرُ المأثور، والقراءةُ لا تأباه؛ لجوازِ أن يكون المعنى عليها: لعلهم يُرجعهم ذلك العذاب عن الكفر إلى الإيمان. و«لعل» لترجِّي المخاطَبين كما فسَّرها بذلك سيبويه[٢]، وعن ابن عباس تفسيرُها هنا بـ «كي»، وكأنَّ المراد: كي نُعرِّضَهم بذلك للتوبة.

وجَعَلَها الزمخشريُّ لتَرجِّيه سبحانه، ولاستحالةِ حقيقةِ ذلك منه عزَّ وجلَّ حمله على إرادته تعالى، وأَوْرَدَ على ذلك سؤالاً أجاب عنه على مذهبه في الاعتزال[٣]، فلا تلتفت إليه.

هذا والآياتُ من قوله تعالى: (أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ) إلى هنا نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس؛ أخرج أبو الفرج الأصبهانيُّ في كتاب «الأغاني» والواحديُّ وابن عديٍّ وابن مردويه والخطيبُ وابن عساكر من طرقٍ عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنا أحدُّ منك سناناً، وأبْسطُ منك لساناً، وأملأُ للكتيبة منك. فقال عليٌّ رضي الله عنه: اسكت فإنما أنت فاسقٌ. فنزلت (أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا) إلخ[٤].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٥.
(٢) سلف كلامه ١/ ٢٢٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٤٥.
(٤) الأغاني ٥/ ١٤٠، وأسباب النزول للواحدي ص٣٦٧-٣٦٨، والكامل لابن عدي ٦/ ٢١٣١،

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ نحوَ ذلك، وأخرج هذا أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليد بن عقبة، ولم يذكر ما جرى[١]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ورجلٍ من قريش ولم يسمِّه.

وفي «الكشاف»: روي في نزولها أنه شَجَر بين عليٍّ ﵁ والوليد بن عقبة يومَ بدرٍ كلامٌ، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبيٌّ، أنا أَشَبُّ منك شباباً، وأَجْلَدُ منك جَلَداً، وأَذْرَبُ منك لساناً، وأحدُّ منك سناناً، وأشجعُ منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: اسكت فإنك فاسق. فنزلت[٢].

ولم نره بهذا اللفظ مسنداً، وقال الخفاجيُّ: قال ابن حجر: إنه غلطٌ فاحش، فإنَّ الوليد لم يكن يومَ بدرٍ رجلاً، بل كان طفلاً لا يتصوَّر منه حضورُ بدرٍ وصدورُ ما ذكر[٣].

ونقل الجلال السيوطيُّ عن الشيخ وليِّ الدِّين: هو غير مستقيمٍ، فإنَّ الوليد يصغرُ عن ذلك.

وأقول: بعضُ الأخبار تقتضي أنه لم يكن مولوداً يوم بدرٍ، أو كان صغيراً جدّاً؛ أخرج أبو داود في «السنن» من طريق ثابت بن الحجاج، عن أبي موسى عبد الله الهمدانيِّ عنه أنه قال: لمَّا افتتح رسولُ الله ﷺ مكة جعل أهلُ مكة يأتونه بصبيانهم فيمسحُ على رؤوسهم، فأُتي بي إليه ﷺ وأنا مخلَّقٌ، فلم يمسَّني من أجل الخلوق[٤]. إلا أنَّ ابن عبد البر قال: إنَّ أبا موسى مجهول، وأيضاً ذكر الزبير وغيره من أهل العلم بالسِّيَر أنَّ أمَّ كلثوم بنتَ عقبة لمَّا خرجت مهاجرةً إلى النبيِّ ﷺ

= وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٢١، وتاريخ ابن عساكر ٦٣/ ٢٣٥، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٧٧-١٧٨. وأخرجه أيضاً أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣).

(١) الخبران في الدر المنثور ٥/ ١٧٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤، وكلام ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣١ دون قوله: بل كان طفلاً... إلخ.

(٤) سنن أبي داود (٤١٨١)، وهو عند أحمد (١٦٣٧٩).

في الهدنة سنةَ سبعٍ، خرج أخواها الوليدُ وعمارة ليردَّاها، وهو ظاهر في أنه لم يكن صبيّاً يوم الفتح؛ إذ مَن يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليردَّ أخته قبل الفتح[1]؟

وبعضُ الأخبار تقتضي أنه كان رجلاً يوم بدر، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة» أنه قَدِمَ في فداء ابن عمٍّ أبيه الحارث بن أبي وَجْزةَ بن أبي عمرو بن أمية، وكان أُسر يومَ بدر فافتداه بأربعة آلاف، وقال: حكاه أهل المغازي[2]. ولم يتعقَّبه بشيءٍ، وسَوْقُ كلامه ظاهرٌ في ارتضائه، ووجهُ اقتضائه ذلك أنَّ ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان، وهذا الذي ذكرناه عن ابن حجر يخالف ما ذكره عنه الخفاجيُّ عليه الرحمة مما مرَّ آنفاً.

ولا ينبغي أن يقال: يجوزُ أن يكون صغيراً ذلك اليوم صغراً يمكنُ معه عادةً الحضورُ، فحضر وجرى ما جرى؛ لأنَّ وَصْفَه بالفسق بمعنى الكفر والوعيدَ عليه بما سمعتَ في الآيات مع كونه دون البلوغ مما لا يكاد يذهب إليه إلا مَن يلتزم أنَّ التكليف بالإيمان إذ ذاك كان مشروطاً بالتمييز.

ولا أن يقال: يجوزُ أن تكون هذه القصة بعد إسلامه، وقد أطلق عليه «فاسقٌ» وهو مسلم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] فقد قال ابن عبد البر: لا خلافَ بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه، حيث إنه ﷺ بعثه مصدِّقاً إلى بني المصطلق، فعاد وأخبر أنهم ارتدُّوا ومنعوا الصدقة[3]. ولم يكن الأمرُ كذلك؛ لأنَّ الفسق هاهنا بمعنى الكفر، وهناك ليس كذلك.

ثم اعلم أنَّ القول بأنها نزلت في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والوليدِ لكلامٍ جرى يوم بدر يقتضي أنها مدنيةٌ، والمختارُ عند بعضهم خلافُه[4].

---

(١) الاستيعاب ١١/ ٢٢-٢٣، وقال أيضاً: والحديث منكر مضطرب لا يصح.
(٢) الإصابة ١٠/ ٣١٣.
(٣) الاستيعاب ١١/ ٢٣.
(٤) وذكر الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٨ أنها نزلت في عليٍّ وعقبة بن أبي معيط، وأخرجه الخطيب وابن عساكر كما ذكر السيوطي في أسباب النزول ص٢٩٣، وقال: كذا في هذه =

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بيانٌ إجماليٌّ لمن قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حالِ مَن قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد، وكلمة «ثم» لاستبعاد الإعراض عنها عقلاً مع غايةِ وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما في قول جعفر بن عُلْبَةَ الحارثيِّ:

ولا يكشف الغمَّاء إلا ابنُ حُرَّةٍ ... يرى غمراتِ الموتِ ثم يزورُها[1]

والمرادُ أنَّ ذلك أظلمُ من كلِّ ظالم.

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي: مِن كلِّ مَن اتَّصف بالإجرام وكَسْبِ الأمورِ المذمومة وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فكيف ممن هو أظلمُ من كلِّ ظالم، وأشدُّ جرماً من كلِّ جارم؟ ففي الجملة إثباتُ الانتقام منه بطريقٍ برهانيٍّ.

وجوِّز أن يراد بالمجرم المُعْرِضُ المذكور، وقد أقيم المظهَرُ مقام المضمَر الراجع إلى «مَن» باعتبارِ معناها، وكان الأصل: إنَّا منهم منتقمون، ليؤذِنَ بأنَّ علَّةَ الانتقام ارتكابُ هذا المُعْرِضِ مثلَ هذا الجرم العظيم.

وفسَّر البغوي «المجرمين» هنا بالمشركين[2]. وقال الطيبيُّ[3] عليه الرحمةُ بعد حكايته: ولا ارتيابَ أنَّ الكلام في ذمِّ المُعْرِضين، وهذا الأسلوبُ أذمُّ لأنه يقرِّر أنَّ الكافر إذا وُصف بالظلم والإجرام حُمِلَ على نهاية كفره وغايةِ تمرُّده، ولأنَّ هذه الآية

= الرواية أنها نزلت في عقبة لا الوليد. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر.

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٢٥، وللمرزوقي ١/ ٤٩، والحماسة البصرية ١/ ٤٦، والكشاف ٣/ ٢٤٦، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٥٤، والتذكرة السعدية ص١٠٠. قال المرزوقي: أي: لا يكشف الخصلة الشديدة إلا رجل كريم يرى قُحَمَ الموت ثم يتوسطها ويصبر فيها، وإنما قال: ابن حُرَّة؛ لينبه على زوال الهجنة منه.
ووقع في الأصل و(م): علية، وهو تصحيف؛ قال البغدادي في الخزانة ١٠/ ٣١٠: جعفر بن عُلْبة بضم العين وسكون اللام بعدها موحدة، يكنى أبا عارم، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر مقلٌّ غَزِل، وفارس مذكور في قومه. اهـ. وقال التبريزي: وعُلبة مسمًّى بالعُلبة التي يحتلب فيها، وهو إناء من جلود يؤطر حولها قضيب، أي: يُعطف.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٠٣.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

كالخاتمة لأحوال المكذِّبين القائلين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[1] [السجدة: ٣] والتخلُّصِ إلى قصة الكليم مسلاةً لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام، إلى آخر ما ذكره فلْيُراجَعْ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: شكٍّ. وقرأ الحسن: «مُرْية» بضم الميم[2].

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: لقائكَ ذلك الجنسَ، على أنَّ «لقاء» مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول، وفاعلُه محذوفٌ وهو ضمير النبيِّ ﷺ، والضميرُ المذكور لـ «الكتاب» المرادِ به الجنسُ، وإيتاءُ ذلك الجنس باعتبار إيتاء التوراة، ولقاؤه باعتبار لقاء القرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقولِه سبحانه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

وحَمَلَ بعضُهم «الكتاب» على العهد، أي: الكتاب المعهودَ، وهو التوراةُ، ولمَّا لم يصحَّ عودُ الضمير إليه ظاهراً لأنه ﷺ لم يَلْقَ عينَ ذلك الكتاب، قيل: الكلام على تقدير مضافٍ، أي: لقاءِ مِثْلِه، أو على الاستخدام[3]، أو أنَّ الضمير راجعٌ إلى القرآن المفهوم منه، ولا يخفى ما في كلٍّ من البُعْد.

والمعنى: إنَّا آتينا موسى مثلَ ما آتيناك من الكتاب، ولقَّيْناه من الوحي مثلَ ما لقَّيناك من الوحي، فلا تكن في شكٍّ من أنك لقيتَ مثلَه ونظيره، وخلاصةُ ما تؤذِنُ به الفاءُ التفريعية: إنَّ معرفتك بأنَّ موسى عليه السلام أوتي التوراةَ ينبغي أن تكون سبباً لإزالة الرَّيْبِ عنك في أمر كتابك، ونهيُه ﷺ عن أن يكون في شكٍّ المقصودُ منه نهيُ أمته ﷺ، والتعريضُ بمن اتَّصف بذلك.

وقيل: المصدر مضافٌ إلى الفاعل، والمفعولُ محذوفٌ هو ضميره ﷺ، أي: من لقائه إياك ووصولِه إليك. وفي التعبير باللقاء دون الإيتاء من تعظيم شأنه ﷺ ما لا يخفى على المتدبِّر، وقد يقال: إنَّ التعبير به على الوجه السابق مؤذنٌ بالتعظيم أيضاً لكنْ من حيثيةٍ أخرى، فتدبَّر.

---

(١) كذا في حاشية الطيبي، وواضح أن قولهم هو: «افتراه» دون ما قبلها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤، والبحر ٧/ ٢٠٥.

(٣) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

وقيل: «الكتاب»: التوراة، وضمير «لقائه» عائدٌ إليه من غير تقدير مضافٍ ولا ارتكابِ استخدام، و«لقاء» مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، وفاعلُه «موسى»، أي: من لقاء موسى الكتابَ، أو مضافٌ إلى فاعله ومفعولُه «موسى»، أي: من لقاء الكتابِ موسى ووصولِه إليه، فالفاءُ مثلُها في قوله:

لَيسَ الجَمالُ بِمِئزَرٍ فاعْلَمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا[1]

دخلتْ على الجملة المعترضة بَدَلَ الواو اهتماماً بشأنها.

وعن الحسن أنَّ ضمير «لقائه» عائدٌ على ما تضمَّنه الكلامُ من الشدة والمحنة التي لقي موسى عليه السلام، فكأنه قيل: ولقد آتينا موسى هذا العبءَ الذي أنت بسبيله فلا تمترِ أنك تلقَى ما لقي هو من الشدة والمحنة بالناس[2]، والجملةُ اعتراضيةٌ. ولا يخفى بعدُه.

وأبعدُ منه بمراحل ما قيل: الضمير لملك الموت الذي تقدَّم ذكره، والجملةُ اعتراضيةٌ أيضاً، بل ينبغي أن يُجلَّ كلامُ الله تعالى عن مثل هذا التخريج.

وأخرج الطبرانيُّ وابن مردويه، والضياء في «المختارة» بسندٍ صحيح عن ابن عباس أنه قال في الآية: أي: من لقاء موسى[3]. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد نحوَه[4]. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنه قال كذلك، فقيل له: أَوَ لقيَ ﷺ موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

---

(١) التمثيل والمحاضرة ص٦٥، والحماسة البصرية ١/ ٥٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٤.

(٢) البحر ٧/ ٢٠٥، وذكره أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٧، وقال: وهذا قول غريب، إلا أنه من رواية عمرو بن عبيد.

(٣) كذا ذكر المصنف، والذي في الدر المنثور ٥/ ١٧٩ (والكلام منه): عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وفيه أيضاً: «من لقاء موسى ربَّه»، وكذا أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٧٥٨)، والضياء في المختارة ١٠/ ٣٥. وصنيع المصنف رحمه الله يشير إلى أنه ذكره في معرض الاستدلال على القول بأن معنى الآية: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى، ويدل على ذلك ما سيأتي بعده عن مجاهد وأبي العالية.

(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٩ بلفظ: «فلا تكن في مرية من لقائه» قال: من أن تلقى موسى.

﴿رُسُلِنَآ﴾ [الزخرف:٤٥][(١)]. وأراد بذلك لقاءَه ﷺ إياه ليلةَ الإسراء كما ذكر في الصحيحين وغيرهما[(٢)]، وروي نحوُ ذلك عن قتادة وجماعةٍ من السلف[(٣)]، وقاله المبرِّدُ حين امتحن الزجَّاج بهذه الآية[(٤)]، وكأنَّ المراد من قوله تعالى: (فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ) على هذا وعدُه تعالى نبيَّه ﷺ بلقاء موسى، وتكون الآية نازلةً قبل الإسراء، والجملةُ اعتراضية بالفاء بدل الواو كما سمعتَ آنفاً، وجَعْلُها مفرَّعةً على ما قبلها غيرُ ظاهرٍ، وبهذا اعترض بعضهم على هذا التفسير، وبالفرار إلى الإعراض سلامةٌ من الاعتراض، وكأنِّي بك ترجِّحُه على التفسير الأول من بعض الجهات، والله تعالى الموفِّق.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ الذي آتيناه موسى. وقال قتادة: أي: وجعلنا موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً من الضلالة ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ خصُّوا بالذكر لِمَا أنهم أكثرُ المنتفعين به. وقيل: لأنه لم يُتَعبَّد بما في كتابه عليه الصلاة والسلام ولدُ إسماعيل ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال قتادة: رؤساء في الخير سوى الأنبياءِ عليهم السلام، وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل﴿يَهْدُونَ﴾ بقيتَهم بما في تضاعيف الكتاب من الحِكَم والأحكام إلى طريق الحقِّ، أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله تعالى وشرائعه عز وجل.

﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بأنْ يَهْدُوا، على أنَّ الأمر واحدُ الأوامر، وهذا على القول بأنهم أنبياءُ ظاهرٌ، وأما على القول بأنهم ليسوا بأنبياء فيجوز أن يكون أمره تعالى إياهم بذلك على حدِّ أمر علماء هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية [آل عمران:١٠٤].

وجوِّز أن يكون الأمرُ واحدَ الأمور، والمرادُ: يهدون بتوفيقنا.

---

(١) الدر المنثور ٥/١٧٩.
(٢) صحيح البخاري (٣٢٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥)، وتفسير الطبري ١٨/٦٣٦.
(٣) أخرجه عن قتادة مسلم إثر الحديث (١٦٥)، وذكره البغوي ٣/٥٠٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٦٤، وذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/٢٠٩.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قال قتادة: على ترك الدنيا. وجوَّز غيرُه أن يكون المراد: لمَّا صبروا على مشاقِّ الطاعة ومقاساة الشدائد في نصرة الدين.

و«لمَّا» يحتمل أن تكون هي التي فيها معنى الجزاء، نحو: لمَّا أكرمتني أكرمتُك، أي: لمَّا صبروا جعلناهم[1] أئمةً، ويحتمل أن تكون هي التي بمعنى الحين الخاليةِ عن معنى الجزاء، والظاهرُ أنها حينئذٍ ظرفٌ لـ «جعلنا»، أي: جعلناهم أئمةً حين صبروا. وجوَّز أبو البقاء كونَها ظرفاً لـ «يهدون»[2].

وقرأ عبد الله وطلحةُ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ ورويس: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيف الميم[3]، على أنَّ اللام للتعليل و«ما» مصدرية، أي: لصَبْرِهم، وهو متعلِّقٌ بـ «جعلنا» أو بـ «يهدون».

وقرأ عبد الله أيضاً: «بما» بالباء السببية و«ما» المصدرية، أي: بسبب صبرهم[4].

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب. وقيل: المراد بها ما يعمُّ الآيات التكوينية، والجارُّ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ أي: كانوا يوقنون بها لإمعانهم فيها النظر لا بغيرها من الأمور الباطلة. وهو تعريضٌ بكفرة أهل مكة، والجملةُ معطوفةٌ على «صبروا»، فتكون داخلةً في حيِّز «لما»، وجوِّز أن تكون معطوفةً على «جعلنا»، وأن تكون في موضع الحال من ضمير «صبروا»، والمراد كذلك: لنجعلنَّ الكتاب الذي آتيناكه ـ أو لنجعلنَّك ـ هدًى لأمتك، ولنجعلنَّ منهم أئمةً يهدون مثل تلك الهداية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء عليهم السلام وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فيميِّز سبحانه بين المحقِّ والمبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥﴾ من أمور الدين.

---

(١) في الأصل و(م): جعلنا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٨٧.
(٢) الإملاء ٤/ ١٨٦-١٨٧.
(٣) التيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٢٠٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٥، والبحر ٧/ ٢٠٥.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزةُ للإنكار، والواوُ للعطف على منويٍّ يقتضيه المقامُ ويناسبُ المعطوفَ معنًى على ما اختاره غير واحد، وفعلُ الهداية إما من قبيل: فلان يعطي، في أنَّ المراد إيقاعُ نفس الفعل بلا ملاحظةِ المفعول، وإما بمعنى التبيين والمفعولُ محذوفٌ، والفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى ما في الذهن ويفسِّره قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾، و«كم» في محلِّ نصبٍ بـ «أهلكنا»، أي: أغَفِلوا ولم يَفْعَل الهدايةَ لهم ـ أو: ولم يبيِّن لهم مآلَ أمرهم، أو طريقَ الحقِّ ـ كثرةُ مَن أهلكنا أو كثرةُ إهلاك مَن أهلكنا من القرون الماضية مثلَ عاد وثمود وقوم لوط.

ولا يجوز أن تكون «كم» فاعلاً؛ لصدارتها، كما نصَّ على ذلك الزجَّاج حاكياً له عن البصريين[١]. وقال الفرَّاء: «كم» في موضع رفعٍ بـ «يهد»، كأنك قلت: أو لم يَهْدِ لهم القرونُ الهالكةُ فيتَّعظوا[٢]. ولا أن يكون محذوفاً؛ لأن الفاعل لا يُحذف إلا في مواضعَ مخصوصةٍ ليس هذا منها، ولا مضمَراً عائداً إلى ما بعدُ لأنه يلزمُ عودُ الضمير إلى متأخرٍ لفظاً ورتبةً في غير محلِّ جوازه، ولا الجملةُ نفسُها لأنها لا تقع فاعلاً على الصحيح إلا إذا قُصِدَ لفظُها، نحو: تَعْصِمُ لا إله إلا الله الدماءَ والأموال.

وجوِّز أن يكون الفاعلُ ضميرَه تعالى شأنُه لسَبْقِ ذكره سبحانه في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ) إلخ، وأُيِّد بقراءة زيد: «نهد لهم» بنون العظمة[٣]؛ قال الخفاجيُّ[٤]: والفعل معلَّقٌ[٥] بـ «كم» عن المفعول وهو مضمونُ الجملة لتضمُّنه معنى العلم. فلا تغفل.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: يمرُّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثارَ هلاكهم، والجملةُ حالٌ من ضمير «لهم»، وقيل: من «القرون». والمعنى: أهلكناهم حالَ غفلتهم. وقيل: مستأنفةٌ بيانٌ لوجهِ هدايتهم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١١.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٣٣، وفيه: أولم تهدهم القرون...
(٣) القراءات الشاذة ص١١٨ عن عليٍّ وابن عباس والسلمي.
(٤) في الحاشية ٧/ ١٥٥.
(٥) قوله: معلق، ساقط من (م).

وقرأ ابن السميفع: «يمشُّون» بالتشديد[1] على أنه تفعيلٌ من المشي للتكثير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من إهلاكنا للأمم الخالية العاتيةِ، أو: في مساكنهم ﴿لَأَيَٰتٍۚ﴾ عظيمةً في أنفسها كثيرةً في عددها ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظ.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الكلامُ فيه كالكلام في «أولم يهد»، أي: أعَمُوا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ﴾ بسوقِ السحاب الحامل له، وقيل: نسوقُ نفسَ الماء بالسيول، وقيل: بإجرائه في الأنهار ومن العيون.

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِزَ نباتُها ـ أي: قُطِعَ ـ إمَّا لعُدْمِ الماء، وإما لأنه رُعي وأُزيل، كما في «الكشاف»[2].

وفي «مجمع البيان»: «الأرض الجرز»: اليابسةُ التي ليس فيها نباتٌ لانقطاع الأمطار عنها، من قولهم: سيفٌ جُرَاز، أي: قَطَّاعٌ لا يُبقي شيئاً إلا قطعه، وناقةٌ جراز: إذا كانت تأكل كلَّ شيء فلا تبقي شيئاً إلا قطعته بفيها، ورجلٌ جَرُوز، أي: أكول، قال الراجز:

خَبٌّ جَروزٌ وإذا جاع بكى[3]

وقال الراغب[4]: الجرزُ مُنْقَطِعُ النبات من أصله، وأرض مجروزةٌ: أُكل ما عليها، وفي مَثَلٍ: لا تَرْضَى شانئةٌ إلا بجَرْزةٍ[5]، أي: بالاستئصال، والجارِزُ:

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٥.

(٢) ٣/ ٢٤٧.

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٩٠، والرجز للشماخ، وهو في ديوانه ص٣٨٠، والمقصور والممدود للفراء ص٦٧، ومقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٧٩، والصحاح (حطب)، والنكت والعيون ٤/ ٣٦٧، واللسان (حنا) و(حطب)، وفيه: الخب: اللئيم. ورواية الديوان: خبٌّ جبانٌ.

(٤) في مفرداته «جرز».

(٥) في الأصل و(م): بجروزة، وهو تصحيف، والمثبت من مفردات الراغب، ومثله في جمهرة الأمثال ٢/ ٤١٨، والمستقصى ٢/ ٢٥٤، وأساس البلاغة (جرز)، ومجمع الأمثال ٢/ ٢١٢، والصحاح واللسان (جرز). وهو مَثَلٌ في العداوة، وأنَّ المُبْغِض لا يرضى إلا باستئصالِ مَن يبغضه.

الشديدُ من السعال، تُصُوِّرَ منه معنى الجَرْزِ وهو القطعُ بالسيف. اهـ، ويفهَمُ مما قاله أنَّ «الجُرُز» يطلقُ على ما انقطع نباتُه لكونه ليس من شأنه الإنباتُ كالسباخ، وهو غير مناسبٍ هنا لقوله تعالى: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾.

والظاهرُ أنَّ المراد: الأرض المتَّصفة بهذه الصفة أيَّ أرضٍ كانت، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرًى بين اليمن والشام[1]. وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن[2].

وإلى عدم التعيين ذهب مجاهدٌ؛ أخرج عنه جماعةٌ أنه قال: الأرضُ الجرز هي التي لا تُنْبِتُ، وهي أَبْيَنُ[3] ونحوُها من الأرض.

وقرئ: «الجُرْز» بسكون الراء[4].

وضمير «به» للماء، والكلامُ على ظاهره عند السلف الصالح، وقالت الأشاعرة: المراد: فنخرج عنده.

والزرعُ في الأصل مصدرٌ وعبِّر به عن المزروع، والمراد به ما يخرج بالمطر مطلقاً، فيشمل الشجر وغيرَه، ولذا قال سبحانه: ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ﴾ أي: من ذلك الزرع ﴿أَنۡعَٰمُهُمۡ﴾ كالتِّبْنِ والقصيل والورق وبعضِ الحبوب المخصوصة بها ﴿وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ كالبقول والحبوب التي يقتاتُها الإنسان.

وفي «البحر»: يجوز أن يراد بالزرع النباتُ المعروفُ، وخُصَّ بالذكر تشريفاً له، ولأنه أعظمُ ما يُقصَدُ من النبات، ويجوز أن يراد به النباتُ مطلقاً، وقدَّم الأنعام لأنَّ انتفاعها مقصورٌ على ذلك، والإنسان قد يتغذَّى بغيره، ولأنَّ أكلها منه مقدَّمٌ لأنها تأكلُه قبل أن يُثمِرَ ويخرجَ سنبلُه. وقيل: ليترقَّى من الأدنى إلى الأشرف، وهم بنو آدم[5].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٧٩.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤١.
(٣) موضع في اليمن، والخبر أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٠، والطبري ١٨/ ٦٤٢.
(٤) البحر ٧/ ٢٠٥.
(٥) بنحوه في البحر ٧/ ٢٠٥.

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية: «يأكل» بالياء التحتية[١].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ألا ينظرون[٢] فلا يبصرون ذلك ليستدلُّوا به على كمال قدرته تعالى وفضلِه عز وجل.

وجُعلت الفاصلةُ هنا «يبصرون» لأنَّ ما قبله مرئيٌّ، وفيما قبله: «يسمعون» لأنَّ ما قبله مسموعٌ. وقيل: ترقِّياً إلى الأعلى في الاتِّعاظ مبالغةً في التذكير ورَفْعِ العذر.

وقرأ ابن مسعود: «تبصرون» بالتاء الفوقية[٣].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: الفصلُ للخصومة بينكم وبيننا، وكأن هذا متعلِّقٌ بقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

وقيل: أي: النصر علينا؛ أخرج ابن جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة قال: قال الصحابة ﷺ: إنَّ لنا يوماً يوشكُ أن نستريح فيه وننتقمَ فيه. فقال المشركون: متى هذا الفتحُ.. إلخ، فنزلت: (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾[٤] أي: في أنَّ الله تعالى هو يفصلُ بين المحقِّين والمبطلين. وقيل: في أنَّ الله تعالى ينصرُكم علينا.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحقِّ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أخرج الفريابيُّ وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: «يوم الفتح»: يوم القيامة[٥]. وهو كما في «البحر» منصوبٌ بـ «لا ينفع»[٦].

والمرادُ بـ «الذين كفروا» إما أولئك القائلون المستهزئون، فالإظهار في مقام

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨، والبحر ٧/ ٢٠٥.
(٢) في الأصل و(م): يبصرون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٨٨، والكلام منه.
(٣) البحر ٧/ ٢٠٥.
(٤) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤٤.
(٥) الدر المنثور ٥/ ١٧٩، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٤٥.
(٦) البحر ٧/ ٢٠٦.

الإضمار لتسجيل كفرهم وبيانِ علَّة الحكم، وإمَّا ما يعمُّهم وغيرَهم وحينئذٍ يُعلَمُ حُكْمُ أولئك المستهزئين بطريقٍ برهانيٍّ.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ استمرارُ النفي، والظاهرُ أنَّ الجملة عطفٌ على «لا ينفع» إلخ والقيدُ معتبرٌ فيها.

وظاهرُ سؤالهم بقولهم: «متى هذا الفتح» يقتضي الجوابَ بتعيين اليوم المسؤول عنه، إلا أنه لمَّا كان غرضُهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أُجيبوا على حَسَبِ ما عُرف من غرضهم، فكأنه قيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤوا فكأنِّي بكم وقد حصلتُم في ذلك اليوم وآمنتُم فلم ينفعكم الإيمان، واستَنْظَرتُم في إدراك العذاب فلم تُنْظَروا، وهذا قريبٌ من الأسلوب الحكيم.

هذا وتفسير «يوم الفتح» بيوم القيامة ظاهرٌ على القول بأنَّ المراد بالفتح الفصلُ للخصومة، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يكاد يتسنَّى على القول بأنَّ المرادَ به النصرُ على أولئك القائلين إذا كانوا عانين به النصرَ والغلبةَ عليهم في الدنيا كما هو ظاهرٌ ممَّا سمعتَ عن مجاهد، وعليه قيل: المراد بيوم الفتح يوم بدر، وأخرج ذلك الحاكمُ وصححه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]. وقيل: يوم فتح مكة؛ وحُكي ذلك عن الحسن ومجاهد.

واستشكل كِلَا القولين بأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ ظاهرٌ في عدم قبول الإيمان من الكافر يومئذٍ، مع أنه آمن ناسٌ يومَ بدرٍ فقُبِلَ منهم، وكذا يوم فتح مكة.

وأجيبَ بأنَّ الموصول على كلٍّ منهما عبارةٌ عن المقتولين في ذلك اليوم على الكفر، فمعنى لا ينفعهم إيمانُهم: أنهم لا إيمان لهم حتى ينفعَهم، فهو على حدِّ قوله:

على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بمناره[2]

---

(١) المستدرك ٢/ ٤١٤، ودلائل النبوة ٢/ ٣٢٨ بزيادة: فلم ينفع الذين كفروا إيمانُهم بعد الموت.

(٢) وعجزه: إذا سافه العودُ النبَاطيُّ جَرْجَرا، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، =

سواء أريدَ بهم قومٌ مخصوصون استهزؤوا أم لا، وسواءٌ عُطِفَ قولُه تعالى: (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) على المقيد أو على المجموع، فتأمل.

وتعقَّب بأنَّ ذلك خلافُ الظاهر، وأيضاً كونُ يوم الفتح يومَ بدرٍ بعيدٌ عن كون السورة مكيةً، وكذا كونُه يومَ فتح مكة، ويُبْعِدُ هذا أيضاً قلَّةُ المقتولين في ذلك اليوم جداً. تدبَّر.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، وعن ابن عباس أنَّ ذلك منسوخٌ بآية السيف. ولا يخفى أنه يحتمل أنَّ المراد الإعراضُ عن مناظرتهم لعدم نَفْعِها، أو تخصيصه بوقتٍ معيَّنٍ، فلا يتعيَّنُ النسخ.

﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ قال الجمهور: أي: الغلبةَ عليكم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقيل: الأظهرُ أن يقال: إنهم منتظِرون هلاكَهم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠].

ويقرُبُ منه ما قيل: وانتظر عذابنا لهم إنهم منتظروه[1]، أي: هذا حُكْمُهم وإن كانوا لا يشعرون، فإنَّ استعجالهم المذكورَ وعكوفَهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي في حُكْمِ انتظارهم العذابَ المترتِّبَ عليه لا محالة.

وقرأ اليمانيُّ: «منتظَرون» بفتح الظاء اسم مفعول[2]، على معنى: إنهم أحقَّاءُ أن يُنْتَظَر هلاكُهم، أو: إنَّ الملائكة عليهم السلام ينتظرونه، والمراد: إنهم هالكون لا محالة.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الالتفات إلى الأسباب والاعتمادُ عليها. وقولُه سبحانه:

= وسلف ٢/ ٢٤١، ويريد به نفي المنار والاهتداء به، أي: ليس به علَمٌ ولا منار فيهتدى به.

(١) في (م): منتظرون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٨٨، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٨، والمحتسب ٢/ ١٧٥، والبحر ٧/ ٢٠٦.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تدبير العباد عند تدبيره عز وجل لا أثر له، فطوبى لمن رُزق الرضا بتدبير الله تعالى واستَغْنَى به عن تدبيره.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ فيه إرشادٌ إلى أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يستقبحَ شيئاً من المخلوقات، وقد حُكي أنَّ نوحاً عليه السلام بصق على كلبٍ أجربَ، فأنطق الله تعالى الكلب فقال: يا نوح أعِبْتَني أم عبتَ خالقي؟! فناح عليه السلام لذلك زماناً طويلاً. فالأشياءُ كلُّها حسنةٌ كلٌّ في بابه، والتفاوتُ إضافيٌّ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ إلى آخر الآية بعد قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ إلخ إشارةٌ إلى التنقُّل في أطوار الحسن، والعروجِ في معارجه، فكم بين الطين والإنسان السميع البصير العالِم، فإن الإنسان مشكاةُ أنوار الذات والصفات، والطين بالنسبة إليه كَلَا شيءٍ.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى حالِ كاملي الإيمان، وعلوِّ شأنِ السجود والتسبيحِ والتحميد والتواضعِ لعظمته عز وجل.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إشارةٌ إلى سهرهم في مناجاة محبوبهم وملاحظةِ جلاله وجماله.

وفي قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: من المعارف وأنواعِ الفيوضات ﴿يُنفِقُونَ﴾ إشارةٌ إلى تكميلهم للغير بعد كمالهم في أنفسهم.

وذَكَر القومُ أنَّ العذاب الأدنى الحرصُ على الدنيا، والعذابَ الأكبر العذابُ على ذلك.

وقال بعضهم: الأولُ التعبُ في طلب الدنيا، والثاني شتاتُ السرِّ.

وقيل: الأول حرمانُ المعرفة، والثاني الاحتجابُ عن مشاهدة المعروف.

وقيل: الأول الهوان، والثاني الخذلان.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما ينبغي أن يكون المرشدُ عليه من الأوصاف، وهو الصبرُ على مشاقِّ العبادات

وأنواعِ البليَّات، وحَبْسُ النفس عن ملاذِّ الشهوات، والإيقانُ بالآيات، فَمَنْ يدَّعي الإرشادَ وهو غيرُ متصفٍ بما ذكر فهو ضالٌّ مضلِّلٌ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي الإعراضُ عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجَعْ فيهم الإرشادُ والنصيحةُ، وإلى أنهم هالكون لا محالةَ؛ فإنَّ الإنكار الذي لا يعذر صاحبه سمٌّ قاتل، وسهمٌ هدفه المقَاتِلُ، نعوذُ بالله تعالى من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ بحرمة حبيبه الأكرمِ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.